حريق اللون... حريق الروح

مسرحية من فصل واحد

موسكو - دمشق
١٩٧٩ - ١٩٩٧

ملاحظات عامة حول نص
(حريق اللون... حريق الروح)

- كُتب هذا النص المسرحي بوحي من حياة وإبداع الفنان التشكيلي السوري الراحل لؤي كيالي (١٩٣٤ - ١٩٧٨).
- استُخدم في النص احتمالات للحوار: الأول هو اللغة العربية الفصحى والثاني هو اللهجة المحكية.
- يمكن أن تُنفذ هذه المسرحية بعدد متفاوت من الممثلين، فبالإضافة إلى الممثل١ الذي يؤدي دور الفنان، يمكن أن يشارك ممثل آخر بالأدوار المختلفة وممثلة للأدوار النسائية، أي بثلاثة ممثلين فقط، ويمكن أن يكون بعدد أكبر من الممثلين.
- يمكن استبدال مواقع بعض المشاهد (اللوحات) حسب الرؤية الإخراجية على ألا يسيء هذا للبنية الزمنية لأحداث النص.
- رغم التزام النص بإبداع الفنان لؤي كيالي، فإنه من الممكن أن تستخدم لوحات فنان آخر أو عدة فنانين، إن مصير المبدع الحقيقي متشابه بمأساويته مع اختلافات بسيطة تتفاوت من هذا البلد إلى ذاك ومن هذا الفنان إلى ذاك.
- التفاصيل الشخصية والحياتية مختلفة ولا تتطابق إلا فيما يخص السيرة الإبداعية للفنان.

اللوحة الأولى

(الخشبة شبه فارغة، اثنان مــن الممثلــين يرتــديان ملابس الموظفين وعلى وجهيهما أقنعة حيادية، إنهما يجلسان على كرسيين صغيرين وأمامهما وُضع لــوح خشبي على طاولة صــغيرة، إنهمــا يــأكلان بــنهم ويتحدثان أثناء ذلك بكلام أغلبه غير مفهوم) .

الممثلة : اشترى... على الهيكل... ثم باع..

الممثل٢ : مضت إلى السوق... الذهب... خمسمائة وأحد عشر...

الممثلة : ستمائة وستة وثلاثون..

الممثل٢ : رخيص... كالتراب وأرخص..

الممثلة : الذكي من يشتري الآن... ويغفو..

الممثل٢ : يبيع والقرش يتضاعف... مرتين.. عشرة.

الممثلة : العقار لا يفنى... لا يحترق.

الممثل٢ : الأرض... لا تذوب.. ولا تغرق..

الممثلة : العقار... ماس..

الممثل٢ : الأرض... ذهب..

الممثلة : بلاتين... دولار..

الثاني : نحاس حتى... أو فضة..

(في هذه الأثناء ينهي الاثنان طعامهما، يجمعان البقايا، يأخذ الأول الوعاء المعدني والملاعق، أما الثاني فيجمع الصحيفة التي غطت اللوح الخشبي ويدعكها ثم يلقي بها في سلة المهملات، يقترب الاثنان من اللوح، يهمان برفعه، يتراجعان، كل منهما يشير للثاني أن يرفعه هو، يرفعانه سوية، من الجانب الآخر للوح الخشبي تظهر لوحة للفنان الراحل لؤي كيالي، في البداية لا يلاحظانها، فجأة ينتبهان إلى اللوحة، يصرخان ويتمتمان ثم تتحول التمتمة إلى حوار غير مفهوم، تتصاعد حدته وهما يتجاذبان اللوحة، لا يتضح من كلامهما سوى بضع كلمات من حوار غير مفهوم):

- أنا.. لي.. أنا الأول... سأضربك.. أعطني
- .. اترك... بل دعها أنت.. نبيع.. نخفي... نأخذ... نقتسم..

(أثناء تجاذب اللوحة، تُقسم إلى نصفين غير منتظمين، يذهلان وكل منهما ينظر إلى النصف الذي بقي بين يديه ويهم برفع يده ليضرب الآخر، يُسمع رنين جرس انتهاء دوام العمل، يقرب الاثنان النصفين أحدهما إلى الآخر

لتعود اللوحة قطعة واحدة، يحملها الاثنان بعناية وحذر ويدوران بخطوات متناسقة ويخرجان من الخشبة ليسود الظلام..)

(يصدح صوت الفنان):

[السعادة بالنسبة لي لحظتان.. لحظة إبداع ولحظة تواجد إنساني في هذا الواقع، لذلك أنا مؤمن بتوجيه القضايا الإبداعية بمنحى معين هو الواقع].

اللوحة الثانية

(الخشبة مظلمة، على إطار شدّ عليه قماش حريري أبيض؛ يظهر سلايد للوحة (صباح الخير أيها الحزن)، موسيقى حزينة، يمكن أن تكون للربابة أو لآلة وترية أخرى تقلد عزف الربابة (كمان أو فيولا... ألخ..) يظهر الممثل الذي يؤدي دور الفنان، إنه نحيل، يبدو فتياً، يرتدي ملابس توحي بأنه في بداية العشرينات من عمره ومن أسرة متوسطة، أما الفترة الزمنية فهي نهاية الخمسينات وتحديداً ١٩٥٧، إنه يحمل حقيبة سفر قديمة وتحت إبطه دفتر بسيط للرسم، يظهر الممثل الثاني، قصير القامة، يرتدي ملابس أكثر بساطة، يبدو فقيراً وقلقاً..)

الممثل١: تأخرت..

الممثل٢: أخي.. لم يعطني البنطال..

الممثل١: ولكنه لك اليوم... أليس كذلك؟

الممثل٢: لي.. لديه موعد مع خطيبته..

الممثل١: لا يهم.. أودعك وتمضي مهرولاً لإعطائه البنطال..

الممثل٢: لا ضرورة.. أعاره ابن الجيران بنطالاً.. أجمل من هذا.. مسافر إذاً؟

الممثل١: مسافر.. لا أصدق.. دافنشي.. ميكيل أنجلو، بوتيشيللي..
الممثل٢: ممارستك لهواية الرسم.. لم تذهب سدى..
الممثل١: هواية؟ ممكن.. دعني أرسمك..
الممثل٢: ببنطال أخي؟ أقصد.. ببنطالك القديم.
الممثل١: لا فرق.. سأرسم بقلم الرصاص.. لن يظهر لون البنطال..
الممثل٢: وهل للبنطال لون أصلاً؟
الممثل١: اجلس هنا... اضحك
(يجلس الممثل وهو ممسك بحقيبة الممثل١ الذي يبدأ بالرسم بقلم الرصاص على الدفتر)
الممثل٢: علام أضحك؟
الممثل١: لا على شيء.. اضحك لي.. من أجلي.. بل ابتسم فقط.
الممثل٢: أنت ستسافر وأنا... سأضحك.. هكذا.. متى سترجع؟!
الممثل١: لا أعلم.. مدة الدراسة خمس سنوات..
الممثل٢: خمس سنوات؟ .. وداعاً إذاً..
(يهم الممثل٢ بالنهوض ولكن الممثل١ يشير إليه بألا يتحرك..)
الممثل١: إلى أين أنت ذاهب؟.. انتظر.. دعني أكمل الرسم..
الممثل٢: (بحزن) لا وقت عندي.. يجب أن أعيد البنطال..
الممثل١: لكنك قلت إن أخاك حصل على بنطال من جاره!
الممثل٢: البنطال لأخي الصغير.. لديه حفلة مدرسية..
الممثل١: انتظر.. لحظة..

(يضع الممثل١ حقيبته أرضاً ويفتحها، يُخرج منها بنطالاً جديداً، يتفحصه ويبتسم، يطويه بعناية ويقدمه للممثل٢ الذي تفحص الرسم في هذه الأثناء ويبدو الإعجاب على وجهه).

الممثل٢: لن أخذه..

الممثل١: ستأخذه.. أحلف..

الممثل٢: ستحتاجه.. أنت مسافر.. قد لا توجد لديهم سراويل (طويلة) ولا ملابس أصلاً!

الممثل١: لا تخف.. لديهم كل شيء.. وأفضل مما لدينا..

الممثل٢: الرسم آخذه إن أعطيتني إياه، أما البنطال فلا!

الممثل١: خذ الرسم .. والبنطال لا أعطيــه لك بل لأخيك الأصغر.. هل يذهب ببنطال عتيق وقذر؟

(الممثل٢ يأخذ البنطال ويهم باقتطاع الرسم من الدفتر ولكن الممثل١ يمسكه من يده ليمنعه من ذلك).

الممثل٢: لا بأس... سأقول لأخي أن البنطال هدية منك...

الممثل١: والدفتر هدية لك... حاول أن ترسم...

الممثل٢: خمس سنوات؟

(يعانق الممثل١ الممثل٢ ثم يضربه ضربات مشجعة خفيفة)

الممثل١: قد آتي في الصيف القادم... إن استطعت أن أعمل أو أدخر بعض النقود..

الممثل٢: انتبه لنفسك... و... اذكرنا...

الممثل١: بالتأكيد... ما الذي ينسيني إياكم؟!
الممثل٢: ماريا... أو... ما اسمها؟ جورجيت..
الممثل١: لا أعرفهما..
الممثل٢: بنات إيطاليا... ينتظرنك الآن في روما...
(يضحك الممثل١ باستغراق وسط دهشة الممثل٢ الذي يبدو أنه بدأ يغضب)
الممثل٢: لماذا تضحك؟
الممثل١: لا شيء... لحظة... إلى أين؟... أريد أن أضمك....
(يمضي الممثل٢ وقد أطرق حزيناً وقد تسارعت خطواته حتى يختفي، يتوقف الممثل١ عن الضحك، ينظر حوله بذهول)
الممثل١: ذهب..
(من وراء الكواليس يظهر رأس الممثل٢ الذي يقول بمرح):
الممثل٢: رافقتك السلامة... والتوفيق... اكتب لي... حتى وأنت في أحضان أنطوانيت وكوليت وجين... لا تنسى... اكتب لي رسائل مستفيضة...
(فجأة تعاود الممثل١ نوبة الضحك، يحمل حقيبته ويصرخ في إثر الممثل الذي اختفى).
الممثل١: في روما لا توجد نساء بأسماء كهذه... في روما توجد دونالوتشيا، ميرابيلا، في روما توجد نافورة الحب ولوحات جيوتو وبييروديللا فراتشيسكا يوجد دافنشي العظيم وميكيل أنجلو العبقري.

(ينظر حوله ويكتشف أنه أصبح وحيداً، يحمل حقيبته، تخفت الإضاءة، وبالتدريج يظهر صوت موسيقى أغنية إيطالية من الخمسينيات، يودع الممثل١ المكان بنظرة فرحة فيها شيء من الدهشة... تعلو الموسيقى، يمشي خطوة، ثم ثانية، ثم يبدأ بالخروج من الخشبة بحركة شبه راقصة دون إسراع بل ويدور وحقيبته بين يديه... تنخفض الإضاءة حتى يسود الظلام على الخشبة... موسيقى الأغنية ما زالت مستمرة).

اللوحة الثالثة

(تستمر الأغنية الإيطالية القديمة وحين تعلو الإضاءة الشاحبة يتبين أننا في غرفة رسام حيث يوضع حامل لوحات ومشجب علقت عليه بعض الملابس وفي العمق ما يشبه السرير الخفيف، ومقابل حامل اللوحات وضع صندوق خشبي غطي بقماش قذر وعليه أصيص فيه زهور شبه ذابلة، تظهر فتاة بملابس تشبه الملابس الغجرية، إنها مبالغة بماكياجها، وبكشف عنقها وصدرها وبالشق الجانبي من الفستان الذي يصخب بالألوان... تدخل الممثلة بحركات مفتعلة شبه راقصة ثم تقف مستندة إلى الصندوق الخشبي بحركة استعراضية ولكن فيها شيء من الرخص، تصدر همهمة بصوت أجش، يتضح فيما بعد أنها خرساء...)

الممثلة : هاه هم...

(تكتشف أنه لا يوجد أحد في الغرفة، تبحث ببصرها ثم تتحرك لترى إن كان الممثل١ مختبئاً في مكان ما في الغرفة).

الممثلة : هوهو!. هوهو؟!

(يظهر الممثل١ وهو يرتدي نفس الملابس تقريباً وقد أضيف إليها شيال للبنطال، إنه يحمل صحناً معدنياً وفيه برتقالة وسكين، يجفل الاثنان ويسقط الصحن في حين تقفز هي إلى الخلف ثم تتنفس الصعداء، يجلس الممثل١ القرفصاء ليأخذ الصحن والسكين، يرفع رأسه وينظر إلى الممثلة نظرة حانقة تتحول إلى الغضب، يلقي بالصحن والسكين مجدداً ويقفز باتجاهها، إنها الآن تدور حول نفسها لتريه كيف تزينت وارتدت ملابس جميلة، ينقض عليها ويمزق لها الفستان بحركة عصبية، تصرخ وتهرب منه، يلحق بها ويحاول تمزيق بقية الفستان فتقعي بخوف وقد رفعت يديها لتحتمي منه، يمد يده ويتجمد للحظة، يبدو عليه الخجل من تصرفه، يحار ماذا يفعل بيديه ويبحث فيجد البرتقالة، ينقض عليها ويختطفها من الأرض ويبدأ بتقشيرها في حين تبدأ الممثلة البكاء بصمت، يقدم لها البرتقالة نصف المقشرة ويحاول رفع شعرها عن وجهها بحركة ملاطفة والإحراج باد عليه، يرفعها ليتوجه بها إلى السرير، ما إن يجلسها ويجلس إلى جانبها حتى تعانقه بحركة مفاجئة، يذهل ويدفعها ولكن دون قسوة، تنظر إليه مجدداً وتجهش بالبكاء وهي تقضم البرتقالة بنهم... يمشي عدة خطوات ويهم بالعودة وهو يعتذر بالإيطالية):

الممثل ١: اكسكوزي سينيوريتا...

(ولكنها تتابع البكاء وهي تقضم البرتقالة، يطرق ثم فجأة يرفع رأسه وقد التمع بريق في عينيه، يلتفت وينظر إليها ثم يشير بيده إليها أن تثبت).

الممثل ١: ابق هكذا... لا تتحركي (يمكن بالإيطالية).

(تنظر إليه وقد أصابها الذعر وتتوقف عن البكاء منكمشة قليلاً على نفسها ولكنه يحاول إرضاءها ويبتسم لها وهو يتوجه إلى حامل اللوحات ويبدأ الرسم...)

الممثل ١: أرجوك... كما كنت (بالإيطالية).

(يرسم بحالة انفعالية شديدة وبحركات قوية عصبية ولكن وجهه يحافظ على حالة من الفرح الصامت والانفعال المبتسم... ينخفض الضوء تدريجياً حتى يسود الظلام...)

اللوحة الرابعة

(الغرفة السابقة ذاتها وقد تحسنت قليلاً فأضيفت بعض قطع الأثاث، كنبة، ضوء في الزاوية، بعض اللوحات التي أسندت هنا وهناك، وعلى الصندوق ظهرت قطعة قماش جديدة وبلون هادئ، على الكنبة يجلس الممثل٢، إنه يرتدي ملابس عصرية ولكن دون مبالغة وقد طال سالفاه وهو يتناول الحساء من صحن عميق زجاجي ويشرب من كأس فيها نبيذ أحمر، في هذه الأثناء يقوم الممثل١ بشد قماش الرسم على إطار خشبي، يفعل ذلك بعصبية ودون كثير إتقان، يبدو أن كلام صديقه الأميركي يثير حفيظته [يتخلل حديث الممثل٢ كلمات بالإيطالية والإنكليزية].

الممثل٢: لا أشك في هذا أبداً.. عندك عقدة نقص وعموماً.. أنتم الشرقيون عندكم عقد نقص تجاهنا.. بالنسبة إليك تقليد فـــان غوغ، بروغل، ميليه، موديلياني اكتشاف... أنا ورائي حضارة غنية هائلة ليس جيوتو وبوتيتشيللي ومايكل فقط.. قبلهم كثيرون..

الممثل١: مايكل؟ آه.. تقصد العبقري ميكيل أنجلو.. (بعدائية) وحضاراتنا هل نسيتها؟

الممثل٢: حضاراتكم؟ الإغريقية، اليونانية، الرومانية حضاراتكم؟ تدمر وبصرى وأفاميا حضاراتكم؟

الممثل١: عن الإغريقية واليونانية والرومانية، عن تدمر وبصرى وغيرها، أؤكد لك أنها من صنع أيدي شعبنا، الرومان والإغريق وغيرهم جاؤوا إلى بلادنا كسلطة عسكرية، استعمارية، همجية.. جاؤوا ليأخذوا خيرات بلادنا.. هل نسيت أن سورية كانت اهراءات القمح للإمبراطورية الرومانية؟! هذا دليل.. الدليل الثاني هو.. من قام ببناء المسارح الرومانية؟ والمعابد؟ والحمامات والقصور والأسواق؟ القواد العسكريون أم جنودهم؟ لا السكان الأصليون، شعبنا الدليل الثالث والأهم .. هل نسيت الفينيقيين؟.. الكنعانيين؟! أنسيت الأشوريين والبابليين والكلدانيين.. هل نسيت كل هؤلاء وقد أهدوا العالم الحضارة والثقافة والعلم حين كان يعيش في ظلام البدائية والجهل؟ كان يجب أن ترسب في مادة تاريخ الحضارة.

الممثل٢: بينِه، بينِه (حسنا).. إذا كان هذا الحديث يضايقك سننهيه، لا داعي للخصام.. بقي القليل ونتخرج وكل منا يمضي إلى حضارته..

الممثل١: (بهدوء) صحيح.. المشكلة أنني أستطيع القول إنني استفدت كثيراً من الإيطاليين ولكن هل سيقول إيطالي واحد إنه استفاد مني؟

الممثل٢: يبدو أن هذا هو سؤال الحضارة..

الممثل١: تقصد سؤال المدنية.. الحضارة ليست ملكاً لأحد.. بل ملك الشعوب التي تنتجها، حتى لو كانت تحت وطأة الاستعمار.. حتى لو كانت خيراتها تنهب ومحاولات التجهيل والتهميش بحقها تستمر.. ولمئات السنين..

الممثل٢: حسناً.. حسناً.. لا تزعج نفسك.. أنا آسف.. لم أقصد إثارتك.. كنت أحدثك لأنني أشعر براحة معك.. إضافة إلى أنني.. (يصمت وكأنه يبحث عن كلمة) أعترف لك، أنا أحسدك..

الممثل١: تحسدني؟ أنت تحسدني؟

الممثل٢: نعم أحسدك.. فعلى الأقل أنت تملك قضية تدافع عنها، قناعة تحارب من أجلها.. قد تخسر ولكنك تملك جوهر حياتك.. هل تعرف ما هي قضيتي؟

الممثل١: آسف.. لا أعرف ما هي قضيتك الآن..

الممثل٢: لدي قضية واحدة الآن.. أن أخلق «صرعة» في الرسم.. أن أكون مختلفاً عن الجميع.. أتفهم؟ بيكاسو، سلفادور دالي، جاكسون بوليك، بونتانا..

الممثل١: (مقاطعاً) لكن الآخرين لا يقارنون بدالي وبيكاسو.

الممثل٢: بالنسبة لنا الجميع يقارن.. «صرعة».. المهم أن تكون صاحب «صرعة» وأنا ماض للبحث عن «صرعتي».. أريفيدتشي.. صحيح كدت أنسى.. شكراً على الطعام.. كان لذيذاً والأهم أنه كان وافراً..

(يخرج الممثل٢ وعليه علائم الإحباط، الممثل١ يضع اللوحة البيضاء الفارغة ويمسك بقلم الفحم ويخط خطاً ثابتاً طولانياً.. يسود الظلام).

اللوحة الخامسة

(ملاحظة: في هذا المشهد يمكن أن يظهر أكبر قدر ممكن من سلايدات أعمال الفنان في مراحله الأولى. على حامل اللوحات تظهر لوحة «من وحي البندقية» وعلى الفور يبدأ تصفيق خجل، يتصاعد التصفيق ولكن بهدوء وانتظام، تسمع كلمات «برافو، بينِه..»..
المصدر الأساسي للضوء في مقدمة الخشبة بحيث تختفي معالم الديكور والإكسسوار ويبقى حامل اللوحات الذي يصبح الآن شاشة لعرض السلايدات.. تظهر لوحة أخرى من أعماله ما بعد الدراسة مباشرة، يظهر الممثل١ وقد ارتدى جاكيتاً فوق ملابسه القديمة، بصحبته رجل يرتدي السموكنغ وقد وضع قبعة عالية على رأسه، يمشي بتفاخر ويتفحص المكان ثم يشاهد حامل اللوحات، يقترب من اللوحة، يضع نظاراته، يبتعد، يقوم بعدة حركات توحي بأنه يشاهد اللوحة من عدة زوايا.. ينظر فجأة إلى الممثل١، يحدق به بعدوانية، ينكمش الأخير، فجأة يقهقه الممثل٢ ويمد يده ليصافح الممثل١).

الممثل٢: (بالإيطالية) جميل.. جيد.. بل رائع.. نعم رائع..

(يقول هذا وينكفئ ليخرج في حين يبدو الممثل مذهولاً).

الممثل١: (بالإيطالية) شكرا.. شكراً..

(من زاوية الخشبة يظهر قناع لجسم كامل يرتدي السموكنغ، في مكان الرأس ثلاثة فراغات للوجه، فوقها قبعات مختلفة، يظهر وجه الممثل٢ في أحد الفراغات)

الممثل٢: (بالإيطالية) لا بأس.. تابع وقد توفق.

(ينتقل الوجه إلى فراغ آخر، يبدل في أسلوب الكلام)

الممثل٢: معقول.. متمكن.. توجد رؤيا..

(ينتقل الوجه إلى فراغ آخر، يبدل أيضاً في أسلوب الكلام، في هذه المرة يكون وجه الممثل٢ في الفراغ الأوسط، في هذه الأثناء يجلس الممثل١ ويأخذ دفتر للرسم ويرسم بانهماك).

الممثل٢: قررت لجنة التحكيم منحك الجائزة الأولى في مسابقة سيسيليا، إنجاز جيد.

(ينتقل الممثل٢ إلى الفراغ الأيمن، الممثل١ يتابع الرسم بعد أن يقلب الصفحة).

الممثل٢: ونمنحك عام ١٩٥٩ الميدالية الذهبية للأجانب في مسابقة رافينا.. وهو إنجاز كبير.

(ينتقل الممثل٢ إلى الفراغ الأيسر، يتابع الرسم وقد انتقل إلى مكان آخر).

الممثل٢: ومن بين فناني إحدى عشرة دولة، نمنحك الجائزة الثالثة في مدينة غوبيو.. ثابر يا بني..

(ينتقل الممثل٢ إلى الفراغ الأوسط ويتنحنح)

الممثل٢: وتفوز يا بني بالجائزة الثانية في مسابقة مدينة ألا تري.. إنك تخطو خطوات سريعة وثابتة وتطور عملك وتتوجه باتجاه أسلوبك المنفرد مما قد يثير حسد زملائك.. إننا نرى فيك فناناً له مستقبل متميز.. نرجو لك التقدير في وطنك سورية..

(من بعيد تسمع موسيقى هادئة مأخوذة من لحن للقدود الحلبية، ينهض الممثل١، يتلفت حوله وقد ساد الظلام تقريباً، يضع الدفتر تحت إبطه، يحمل حقيبته القديمة، يربت على حامل اللوحات الفارغ الآن، يمشي بتباطؤ، ثم يرفع رأسه وقد التمعت عيناه ويركض خارجاً...)

(إظـــــلام)

اللوحة السادسة

(الخشبة شبه فارغة باستثناء طاولة علقت وراءها لوحة كتب عليها «الجمارك»، الممثل٢ جلس على كرسي وراء الطاولة وقد أخفى جزأه الأعلى بصحيفة يقرؤها، إلى جانبه وعلى الطاولة راديو، تصدح أغنية شائعة في فترة الستينات، يقترب الممثل١، إنه يرتدي قبعة «كاسكيت» شتوية ويضع لفحة حمراء على رقبته رغم أنه لم يبدل ثيابه، إنه يحمل حقيبة سفره القديمة ونموذجاً لتمثال فينوس نصف العاري، يقف الممثل١ على مستوى حافة الطاولة وينظر إلى اللوحة، ينظر إلى الموظف المختفي وراء صحيفته، يتنحنح ولكن الأخير لا يبدي أي اهتمام، الممثل١ يسعل ولكن الممثل٢ لا يبدي أية ردة فعل، حينها يهز الممثل بكتفيه ويمشي خطوتين فيعلو صوت الممثل٢ بطريقة فظة):

الممثل٢: إلى أين؟

الممثل١: أنا!... قلت لنفسي

الممثل٢: ضع البضاعة على الطاولة.

الممثل١: البضاعة؟ تقصد التمثال؟

(يُبعد الممثل٢ الصحيفة ويرميها أرضاً، على رأسه قبعة الجمارك، يختطف جواز السفر من يد الممثل١، يفتحه بتكاسل).

الممثل٢: أصبح اسمه تمثالاً الآن؟ ضع هذا الفسق.. والحقيبة أيضاً..

(فجأة ينظر الممثل١ إلى صورة الجواز ثم يقفز مقترباً من الممثل١ وهو يحدق في وجهه).

الممثل٢: هذا أنت؟

الممثل١: طبعاً أنا..

الممثل٢: هذا الشعر الطويل والسحنة.. وتقول أنت هو؟

الممثل١: (يبتسم بود) الحق معك.. الصورة قديمة.. قبل سفري الأول..

الممثل٢: (بسخرية) قديمة؟ وقد تكون لأخيك.. وجواز السفر؛ أليس لإبنة الجيران؟

الممثل١: ولكن الاسم اسمي وأستطيع...

الممثل٢: هذا ما سنتأكد منه.. هيا.. دون أن نفتح أو نغلق.. ما الذي جلبته معك؟.. (صارخاً) اعترف منذ البداية.. ما هي الممنوعات التي معك؟

الممثل١: ممنوعات؟.. عفواً ما هو الممنوع؟

الممثل٢: وكأنك لا تعرف.. أمثالك لا يخضعون إلا حين نفضح أمرهم.

الممثل١: (يبدو عليه الضيق) عفواً.. أنا لا أسمح.. أنا فنان.. كنت أدرس في الأكاديمية في روما.

الممثل٢: كل المهربين فنانين.. لماذا لا تفتح الحقيبة؟

(يحاول الممثل١ فتح الحقيبة ولكنها تستعصي عليه فيثور أكثر ويضربها بيده).

الممثل١: هنا.. يجب ضغط هذا اللسان.. فتحت..

(يقفز الممثل٢ إلى الوراء ثم ينظر إلى الممثل١، يقترب منه بالدوران حول الطاولة، يحدق به بنظرة متهمة):

الممثل٢: ما الذي في الحقيبة؟.. قل قبل أن أتفقدها.

الممثل١: في الحقيبة بعض الملابس.. ولوحات.. قلت لك: أنا فنان تشكيلي..

الممثل٢: فنان؟.. أنا أعمل في الجمارك منذ عشر سنوات.. ماذا؟ ماذا.. آه... فسيفساء.. ولكني أعرف أنهم يخرجون التماثيل وتلك التي تُسمى.. ماذا؟ ماذا.. آه.. فسيفساء.. ولكني خلال حياتي لم أر أحداً قد جلب تماثيل كهذه..

(في هذه الأثناء يخرج لفة ويفتحها فتتساقط بعض اللفات الخيشية، في حين ينظر الممثل٢ إلى التي في يده ويقول متابعاً بامتعاض)

الممثل٢: اعترف.. ما الذي تخفيه وراء هذه التفاهة؟

الممثل١: ما أخفيه وراءها؟ .. كل شيء: أفكاري.. حزني وفرحي وألواني.. ذكرياتي وشوقي.. حناني وحنيني..

(يقول الممثل١ المقطع الأخير بشيء من الحيادية وإقرار الحقيقة وكأنه يقولها لنفسه، أثناء ذلك يقوم الممثل٢ بإخراج اللوحات القماشية وبعض المظاريف التي احتوت على رسوم ودراسات، ينظر إلى بعضها ويبتسم ولكنه يمسك أخرى بالمقلوب فيساعده الممثل١ لإعادتها.. بعد ذلك لا ينظر الممثل٢ إلى اللوحات بل يغوص في الحقيبة ملقياً ما فيها من لوحات جانباً، أحياناً يعود إلى رسم امرأة عارية ويبتسم بخبث، لكنه سرعان ما يفرغ الحقيبة من محتوياتها فينظر بغضب إلى الممثل١).

الممثل٢: هذا فقط؟

الممثل١: نعم.. ماذا يجب أن يكون أيضاً؟

الممثل٢: الهدايا؟ المهربات! الدخان والمشروبات؟ أين الملابس الداخلية النسائية؟ أين الروائح الفرنسية؟

(الممثل١ يجمع اللوحات بعصبية، يخرج علبة سجائره ويهم بإشعال واحدة فيختطفها منه الممثل٢)

الممثل٢: حتى كرم الضيافة نسيته هناك؟ تغيبون لأشهر وتنسون حليب أمهاتكم.. (يسعل بقوة بعد أن سحب الدخان) اللعنة.. ما هذا؟

الممثل١: لا تؤاخذني.. تبغ رخيص.

الممثل٢: رخيص؟ أم حشيش؟

الممثل١: الحشيش يأخذونه من عندنا..

الممثل٢: لست هيناً.. توقف.. أليس هذا العري عيباً؟

الممثل١: هذه نسخة لتمثال.. (يصمت ويستدرك بأن يخلع اللفحة الحمراء ويلفها حول صدر التمثال).

الممثل١: هكذا أفضل؟

الممثل٢: لا بأس خذ جواز سفرك وأهلاً وسهلاً.. الحمد لله على السلامة..

الممثل١: شكراً.

الممثل٢: وأين أصرف هذه الشكراً ؟ أقول الحمد لله على السلامة..

الممثل١: لا تؤاخذني لم أجلب معي شيئاً.

الممثل٢: والنقود! جلبت نقوداً لأهلك عوضاً عن الهدايا.. أليس كذلك؟

الممثل١: آسف.. سأهديهم من لوحاتي.

الممثل٢: تهدي أهلك لوحات؟ هل سيرتدونها أم سيأكلونها؟

الممثل١: إذا اضطروا يمكن أن يبيعوها.. كثير من الفنانين يبيعون أعمالهم..

الممثل٢: وأنت.. تبيع منها؟

الممثل١: بعت عدة لوحات في إيطاليا.

الممثل٢: كم ثمن الواحدة؟

الممثل١: حسب حجمها وموضوعها والتقنية المنفذة.

الممثل٢: لا أريد محاضرة.. واحدة بهذا الحجم كم ثمنها؟

الممثل١: عندنا حوالي مائة أو مائة وخمسون ليرة.

الممثل٢: أوو! أكثر من نصف راتبي.

الممثل١: يمكن أقل قليلاً.

الممثل٢: (يتفحص اللوحات) أحببت هذه الورود.

الممثل١: شكراً لهذا اللطف.

الممثل٢: أقول لك أحببتها، تجيبني شكراً؟ بدلاً من إعطائي إياها؟ ما نوعك أنت؟؟

الممثل١: أسف.. اعتقدت أنك غير مهتم بالفن.

(الممثل٢ يختطف اللوحة يلفها ويضعها في درج الطاولة ويخرج منديلاً قذراً يمسح به عرقه وهو يتمتم).

الممثل٢: غير مهتم؟! مائة ليرة ولا أهتم؟ مع السلامة.

الممثل١: الوداع.. (يعود) عفواً.. اللوحة بحاجة إلى إطار.. لا داع لإطار ذهبي إطار من الخشب العادي.. جوز أو أي نوع متين.

الممثل٢: (بسخرية) طبعاً.. من خشب الجوز.. بل من الزان.. أنت تأمر فقط، تقول إطار ذهبي؟ هل تعتقد أنني جننت؟ اذهب قبل أن أعيد تفتيشك.

(الممثل٢ يلاحق الممثل١ الذي ينسحب متراجعاً وبسرعة يخرج من الخشبة في حين يعود الممثل٢ وينظر مجدداً إلى اللوحة ويتمتم بارتياح).

الممثل٢: هؤلاء الفنانين مجانين.. سأبيعها بخمسة وسبعين ليرة.. بخمسين لا بأس.. بل أرضى بعشرة.. خمسة تكفي..

(تنخفض الإضاءة مع الكلمات الأخيرة للممثل٢ حتى يسود الظلام)

اللوحة السابعة

(من الإظلام يظهر الممثل١ ضمن بقعة ضوء محددة جداً، إنه يجلس على كرسيه مقابل الصندوق الذي وضع عليه قماش وفوقه أصيص من الزهور الطبيعية الشائعة. الممثل يرسم على دفتر رسم عادي ولكن باحترافية، يقترب الممثل٢ بملابس صبي في المدرسة، يقف وراء الأستاذ وقد رفع يده والسبابة ممدودة، يده الأخرى على خده الأيسر متظاهراً بالألم)

الممثل٢: ضرسي يؤلمني.. الألم لا يطاق

الممثل١: ضرسك؟ حسن.. اذهب.. ضع عليه أسبرين وتمضمض بالماء والملح.

(يخرج الممثل٢ مسرعاً، في حين يلتفت الممثل باتجاه الظلام، تسري همهمة، يقول الممثل١ بصرامة أستاذ)

الممثل١: كفاكم ثرثرة.. نحن في الدرس... يجب أن تحترموا درس الرسم أكثر من غيره .. أترون الزهور ؟ فيها اللغة العربية والأجنبية، العلوم والفيزياء، فيها الرياضيات والكيمياء وعلم الاجتماع..

صوت تلميذ: (من خلال الضحك) علم الاجتماع أيضاً؟

الممثل١: ولم لا؟ من زرعها؟ من صنع الأصيص؟ من حملها وباعها وجلبها؟ أليس هذا علم اجتماع؟

(في هذه الأثناء يقترب تلميذ آخر وهو مطأطئ الرأس)

الممثلة : أستاذ... هل تسمح لي بالخروج.. لدي مذاكرة في مادة الجبر، إذا لم أنجح فيها أرسب السنة كلها.

الممثل١: وأنت في أي درس الآن؟

الممثلة : في درس الرسم

الممثل١: وإذا رسبت في درس الرسم؟

الممثلة٢: (تبتسم وتشيح بيدها بمعنى «لا يهم») مادة الرسم لا ترسب يا أستاذ.

الممثل١: هذه هي المصيبة.. مادة الرسم لا ترسب.. اذهب.. (باتجاه الظلام).

من شاء الخروج فليخرج (ينهض غاضباً) من يؤلمه بطنه.. فليخرج.. من لديه امتحان اللغة الانكليزية، الفرنسية فليخرج، تلاميذ الرياضة.. من ينتظره صديقه، من ضربه والده، ومن كسرت ساق ابن جاره فليخرج أيضاً، من وضعت ابنة خالة أمه توأماً.. بإمكانه المضي.. بإمكانكم جميعاً الذهاب لأن مادة الرسم لا ترسب في المدرسة.

(يقترب تلميذ وبيده دفتر الرسم، يمد يده ليري الممثل١ ما رسم، الممثل١ لا ينتبه إليه).

الممثل٢: هكذا معقول أستاذ؟

الممثل١: (في فورة غضبه) اذهب أنت أيضاً.. ماذا تنتظر؟

(يشاهد الرسم فيستدرك) عفواً يا بني.. عظيم.. ممتاز.. ولكن لاحظ.. لديك الظل في عدة اتجاهات، هذا يعني أن مصدر الضوء آت من مصادر عدة، انظر هناك.. هل ترى أين هو مصدر الضوء.. والظل!!

(تنخفض الإضاءة تدريجياً بينما الممثل١ يتابع كلامه حتى يسود الظلام).

اللوحة الثامنة

(من خلال الإضاءة التي تتصاعد تدريجياً؛ تظهر غرفة الفنان، يميزها حامل اللوحات وإلى جانبه أدوات الرسم والكنبة والتمثال (من المشهد السادس). يظهر الممثل١ وقد استبدل ملابسه بارتداء قميص أبيض يعقد أزراره أثناء دخوله، يلاحظ وجود لوحة كبيرة بيضاء وضعت إلى جانب الكنبة، يأخذها ويضعها على الحامل، يقف أمامها بشكل يعكس ظله عليها، يفكر، يطرق ثم ينظر إلى اللوحة الفارغة، ينظر حوله، ثم يعود للنظر إلى اللوحة، يتلمس سطحها الخشن، فجأة يبدأ ببحث متوتر حوله، يجد قلم الفحم على الطاولة، يختطفه ويقترب من اللوحة البيضاء ولكنه يكتشف أنه لوث قميصه بالفحم، يهز رأسه أسفاً ويهم بالرسم، تدخل الممثلة وهي ترتدي ملابس أنيقة محافظة توحي بفترة بداية الستينات، إنها تحمل ربطة عنق داخل غلاف من النايلون، تلقي بحقيبتها على الكنبة وتشهق بدهشة):

الممثلة : ماذا تفعل؟ سيفتتح المعرض بعد نصف ساعة!

الممثل١: أ.. أنا.. خطرت لي فكرة.. منذ مدة طويلة أرغب..

الممثلة : (مقاطعة) يا أخي.. يا عزيزي.. جئت خصيصاً من حلب، ويمكن أن يأتي الوزير مع جمهور الافتتاح.. وأنت تقول لي فكرة! ياه.. ماذا فعلت بالقميص؟ كيف؟؟

(ينظر الممثل١ إلى القميص الذي تلوث، يحاول إزالة الآثار السوداء مبتسماً وكأنه يعتذر، تبدأ الممثلة بمساعدته للتخلص من القميص).

الممثلة : لا يمكنك حضور الافتتاح بهذا القميص.. ألديك قميص أبيض آخر؟

الممثل١: لا.. لدي قميص كحلي.. وآخر أسود.. قذر.

الممثلة : كحلي وأسود قذر لا يمكن وضع ربطة عنق عليهما.

الممثل١: ربطة عنق؟ لا تنقصني إلا ربطة العنق.. سأختنق بها.

الممثلة : يا ويلي منك.

الممثل١: أختي.. لا تحزني.. سأرتدي الأسود.

الممثلة : (متابعة) القذر.

الممثل١: مع الحذاء الأصفر.

(تنهار الممثلة على الكنبة وتضع يديها على رأسها في حركة يائسة)

الممثلة : ارتد ما تريد.. المهم أن تسرع.. ليس من اللائق أن تتأخر.

(ترفع الممثلة رأسها فتجد أن الممثل١ قد عاد إلى اللوحة البيضاء، ها هو يحرك يده الممسكة بقلم الفحم في مختلف الاتجاهات دون أن يقدم على وضع الخط الأول، تدهش وتقف وتصرخ به):

الممثلة : هل سمعتني؟ بسرعة.. الناس بانتظارك.. معرضك الأول في وطنك وأنت تريد أن ترسم؟ هيا.. الآن، ارتد ملابسك.

(تبدو عليه الحيرة وشيء من الخوف من نوبة انفجارها، يضع قطعة الفحم في مكانها ويتحرك لعدة خطوات دون هدى ثم يلتفت إليها ويشير لها أن تهدأ).

الممثل١: لا تقلقي.. ثوان.. أبدل القميص ونذهب إلى المعرض.. أنا آسف فعلاً، ففكرة اللوحة لخبطتني.. لا تؤاخذيني.. يمكن حتى ألا أستبدل القميص، نخفي البقعة بالسترة الرمادية.. اهدئي.. أأجلب لك ماء؟ حسن اسبقيني وخلال ثوان أكون وراءك.

(تبدأ الممثلة بالضحك، يتصاعد ضحكها بحيث يصبح قهقهة هستيرية، تدريجياً يسود الظلام على الخشبة).

اللوحة التاسعة

(يُبنى هذا المشهد على استعراض سلايدات لوحات الفنان، معرضه الأول(*). بعد استعراض عدة لوحات يظهر الممثل١ إلى جانب الحامل، بالكاد يرى فمصدر الضوء الوحيد هو السلايد، يقف وهو مطرق ويبدو عليه الاستغراق لكن الممثلة بملابس المشهد السابق تظهر وتحاول إصلاح هندام الممثل١ لتختفي ثم تظهر من الجانب الآخر، يسمع صوت خارجي يقدم للمعرض):

الصوت: في هذا المعرض، نجد أنفسنا مع بوتيتشللي وهو يرسم حبيبته في فلورنسا على صورة فينوس ساعة ولادة الجمال فيها، أو أننا في أروقة الكنائس والكاتدرائيات الفخمة القديمة.. (**)

(*) ١٩٦١ أقام الفنان لؤي كيالي معرضه الأول في دمشق في صالة الفن الحديث، ضم المعرض ٢٨ لوحة زيتية و٣٠ رسماً، لاقى المعرض نجاحاً كبيراً وأثار ضجة في حينه.

(**) كلمة الدكتور سلمان قطاية في معرض الفنان لؤي كيالي الأول.

(في هذه الأثناء تقوم الممثلة بمحاولة مسح عرق الممثل١ ولكنه يبعد يدها ويعود للإطراق والحرج ظاهر عليه).

الصوت: ... وقد انتصب على جدرانها قديسون بجلال رهيب ووقار ملكي ووقفت الملائكة..

(ينخفض الصوت تدريجياً وتظهر موسيقى لآلة منفردة تعزف لحناً مرحاً من وحي الموسيقا الإيطالية القديمة ثم تتحول تدريجياً إلى موسيقى حزينة شرقية..

تتالى الرسوم ثم تنخفض الإضاءة تدريجياً وكذلك صوت الموسيقى، تسود لحظة صمت ثم فجأة تصدح أصوات التصفيق والتهليل، في بقعة الضوء يقف الممثل١ وهو محرج ينظر حوله ويبتسم، ثم يتجهم و يمسح عرقه بمنديل تقدمه له يد الممثلة.. تُسمع أصوات تتخلل التصفيق):

أصوات: برافو.. عظيم.. برافو.. رائع.. ولا أجمل.. مختلف.. جديد.. طازج.. ممتاز.. جميل.. جميل..

(يسود الظلام)

اللوحة العاشرة

(من الظلام ينبثق ضوء فوق الكنبة التي يجلس عليها الممثل١، إنه يحدق باللوحة البيضاء، حوله تناثرت الأوراق وبعض الصحف والمجلات، تدخل الممثلة بملابس منزلية إنها تحمل صينية عليها كأس كبيرة من الزهورات يتصاعد منها البخار.. تقدم له الكأس، يأخذه بحركة آلية وهو يفكر باستغراق، يهم بإشعال سيجارة ولكن الممثلة تمسك يده التي أشعلت عود الثقاب..)

الممثلة : أرجوك يا أخي.. أجل هذه اللفافة قليلاً.. طوال الليل لم ينقطع سعالك..

الممثل١: كنت أسعل لأنني غيرت سجائري.

(في هذه الأثناء ترفع له يده الممسكة بالكأس ليشرب منها، يرشف رشفة ثم يضع الكأس وهو يتابع أخته التي بدأت تجمع الأوراق من حوله).

الممثلة : قرأت ما كتب هنا عنك؟ اسمع:

«لقد طرح معرضه الأول تساؤلات عديدة، ومهما يكن من أمر فإن أعماله في هذا المعرض كانت إشارة كافية لوضع (تنظر بدهشة للممثل١ الذي

وأجلسها مكانه وقد وضع الكأس جانباً).

الممثلة : ما بك؟.. ماذا حصل لك؟

الممثل١: لا شيء.. أرجوك ابق هكذا.. لحظة.

(يأخذ كتاباً ويعطيها إياه بعد أن فتحه، يعد جلستها ووضعية يديها، يبتعد وهو ينظر إليها، يدير حامل اللوحات ويبدأ بالرسم بانهماك).

الممثل١: أرجوك يا أختي.. ابق هكذا.. اثبتي.. يمكنك متابعة الكلام، فقط لا تبدلي وضعيتك..

الممثلة : (تعود للصحيفة) أين توقفت؟ آه.. هنا «كانت إشارة كافية لوضع إمكاناته وطاقاته الجاهزة ضمن طريق خاصة به، محددة المعالم، طريق مميزة بكل معالمها، طريق تؤلف اتجاهاً خاصاً لفنان ذي أسلوب مختلف كل الاختلاف عن الاتجاهات السائدة بين فناني القطر...»

(ترفع رأسها وتقول للممثل١ بشيء من التأثر)

الممثلة : كلام حلو.. حلو جداً.. و..

الممثل١: (مقاطعاً) أرجوك لا تحركي يدك.. هكذا.. بالضبط.. خمس دقائق فقط.. ألتقط اللحظة وبعدها أنت حرة.. طليقة.

الممثلة : (تتثاءب) خمس دقائق .. أكاد أموت من النعاس.. آه تذكرت؛ ألن تتزوج؟ معرضك ولاقى نجاحاً كبيراً.. بيعت أغلب اللوحات.. أصبحت معروفاً بين فناني

البلد.. لم تبق صحيفة إلا وكتبت عنك.. أجبني، متى تتزوج؟

الممثل١: أنت حرة الآن.. يمكنك المضي إلى الفراش..

(تتثاءب الممثلة ثانية، تضع الصحيفة جانباً وتنهض، يتابع هو عمله، تقترب هي وتنظر إلى اللوحة)

الممثلة : هذه أنا؟

الممثل١: هذه «القارئة»..

الممثلة : لا تشبهني أبداً!

الممثل١: هل هذا ضروري؟

الممثلة : لا.. الضروري هو متى ستتزوج! أجبني.

الممثل١: بعد المعرض..

الممثلة : ما بك؟ المعرض انتهى منذ مدة.

الممثل١: بعد المعرض القادم.. ألا تريدين أن تنامي؟

الممثلة : هل ستعمل طويلاً؟

الممثل١: قد أعمل حتى الصباح.

الممثلة : تصبح على خير.

(تمضي الممثلة ويتابع الممثل١ العمل بشيء من الراحة، إنه يحمل الفرشاة بيد وحامل الألوان بيده الأخرى، يبتسم ثم يعقد حاجبيه.. تنخفض الإضاءة وعلى شاشة السلايد تظهر لوحة «القارئة» لعدة ثوان.. يسود الظلام).

اللوحة الحادية عشرة

(طاولة وضعت عليها كمية من الرسوم، الممثل٢ وقد وضع نظارات على عينيه وغليون في فمه، يتفحص اللوحات باستعراض الأعمال، أحياناً يهز رأسه إيجاباً وأحياناً بحركة أسف، بعض الرسوم يبعدها عن وجهه بل ويضع البعض ويبتعد بحركات متعجلة.. لا يتمالك الممثل١ نفسه فيقول بإلحاح):

الممثل١: هه.. ما رأيك؟

الممثل٢: (يتنحنح) مقبول.. معقول.. (يخلع نظارته).. بعض الأعمال جيدة.. بل ممتازة.. ولكن...

(الممثل١ يتفحص الرسوم حسبما فرزها الممثل٢ ضمن مجموعات)

الممثل١: ماذا؟

الممثل٢: أعتقد أنك تخطئ بتوجيهك للطلاب بالاتجاه الأكاديمي، أسلوب قديم.. عفى عليه الزمن.. أنت عشت في أوروبا وفي إيطاليا بالذات عاصمة الفن التشكيلي، ولا شك أنك اطلعت على الاتجاهات الحديثة، على حركة

تحرير الفن من قيوده التقليدية، إطلاق يد ومخيلة الفنان وحريته، رفضه لكل ما هو قديم وتقليدي عفن.

الممثل١: عفواً يا زميل.. أنت تتحدث عن طالب في المعهد العالي للفنون الجميلة؟

الممثل٢: نعم.. الطالب مشروع فنان.

الممثل١: ولكن هذا المشروع سيكون عفناً إذا لم يتعلم ألف باء الفن التشكيلي.

الممثل٢: أعرف ما ستقول... لا بأس أن يدرس التشريح، ولكن هل من الضروري أن يرسم مثل رفائيل؟ لماذا لا يختار بيكاسو؟!

الممثل١: لأن بيكاسو نفسه بدأ يرسم كرفائيل، ثم تطور وتغير وكان هذا ناتج عن ضرورة، ضرورة اجتماعية وسياسية ونفسية وعاطفية.. هذه الضرورة تحولت لتصبح حاجة إبداعية... أسلوب في التعبير.

الممثل٢: يا عزيزي.. هل تريد أن تقرأ لي محاضرة؟ إنني لا أتدخل في أسلوبك التعليمي.. ومجلس الأساتذة سيحسم خلافنا.. كل ما هنالك أنني أبديت رأيي وأنت تتشبث برأيك..

الممثل١: القضية ليست قضية آراء.. أنا أفترضها قضية ضمير مهني.

الممثل٢: عفواً؟!

الممثل١: إذا نحن لم نحسن تأسيس طلابنا سيلعنوننا عند أول امتحان عملي لفنهم.. ليسوا هم فقط، سيلعننا الجمهور.. وفي النهاية سيلعننا الوطن.

الممثل٢: لم أكن أتوقع منك هذه الحدة.. الآن فقط فهمت قول أحدهم بأنك تحسن اكتساب الأعداء..

الممثل١: أعداء؟!

الممثل٢: إلى اللقاء... وأعتقد أن بعض لوحاتك متأثرة بشكل مباشر بأعمال فنانين معروفين ليس فقط في إيطاليا.

(يقول الممثل٢ هذا ويندفع خارجاً وقد تعمد ضرب الرسوم بيده بلا مبالاة حيث تساقطت على الأرض، يهم الممثل١ بقول شيء واللحاق بالممثل٢ ولكنه يحجم، يشعل سيجارة، يمشي بعصبية وفجأة يلاحظ الرسوم المتبعثرة أرضاً، يجلس القرفصاء ويبدأ بجمعها، فجأة يتوقف عند أحد الرسوم، يبتسم وتتغير ملامحه إلى شيء من الهدوء الطيب ويتمتم):

الممثل١: هذا الشاب له مستقبل.. جميل.. أحسده على هذا الإحساس بكل شيء.

(تنخفض الإضاءة بشكل تدريجي حتى يسود الظلام.. الممثل١ يتفرج على الأعمال الأخرى).

اللوحة الثانية عشرة

(من الظلام تظهر طاولة تبدو أنها في مقهى وقد وضعت عدة كراس حولها وإبريق معدني للماء مما يستخدم في المقاهي. يجلس الممثل١، إنه يقرأ في صحيفة وهو يرتشف القهوة، إنه مستغرق في القراءة ولكن يبدو عليه التوتر، يشعل لفافة، يغلق الممثل١ الصحيفة بعنف ويلقي بها على الطاولة ولكنها تسقط أرضاً فيرفعها).

الممثل١: جئت؟

الممثل٢: ألا تريد يانصيب؟

الممثل١: نصيبي أعرفه (يلوح بالصحيفة) أحصل عليه وزيادة.

الممثل٢: يكتبون عنك في هذه الصحيفة؟

الممثل١: هذه ليست كتابة.. بل شتائم.. قذارة..

الممثل٢: لا تؤاخذني.. أزعجتك.. أتركك بخير.. (يهم بالانسحاب).

الممثل١: اسمع.. ساقاك.. كيف حصل لك هذا؟

الممثل٢: لم يحصل.. منذ الولادة.. شلل أطفال..

الممثل١: تتألم؟ أقصد حين تمشي.

الممثل٢: لا، أتعب.. ولكن ماذا أفعل! يجب أن نعيش.

الممثل١: هل تعيش مع الأهل؟

الممثل٢: مع الأهل.. الأب سكير.. والأم لا تتوقف عن العمل والإنجاب.

الممثل١: لديك الكثير من الأخوة؟

الممثل٢: ست بنات، أنا الصبي الوحيد.. نصف صبي.

الممثل١: اعذرني، هل أزعجتك بسؤالي؟

الممثل٢: لا.. قلما يسألني أحد عن أحوالي.. أغلبهم يحاولون معي.

الممثل١: يحاولون معك؟

الممثل٢: أدافع عن نفسي بهذه (يلوح بالعكاز) أتركك بخير.

(يلتفت الممثل٢ ويهم بالمضي، ينهض الممثل١ ويبحث في جيوبه، يخرج النقود، يضع ورقة نقدية على الطاولة وأخرى في جيبه ويمد يده للممثل٢).

الممثل١: اسمع.. توقف.. خذ هذه.

الممثل٢: ما هذا؟ عفواً يا سيدي أنا لا أشحذ.

الممثل١: وأنا لا أتصدق على الشحاذين.. كم تكسب في اليوم؟

الممثل٢: حسب.. أربع.. خمس ليرات.. أحياناً ثلاث.. اليوم لم أبع ولا ورقة.

الممثل١: هذه خمس ليرات.. خذها وأريد منك شيئاً.

الممثل٢: لم أتوقع أنك منهم.. حسبتك مثقفاً.

الممثل١: وأنا مثقف.. اللعنة، أقصد فنان، رسام.. أعطيك هذه النقود لتقف أمامي.. أريد أن أرسمك..

الممثل٢: أقف؟.. كم من الوقت؟

الممثل١: ساعة في اليوم.. ثم تجلس وتشرب شيئاً.. ثم ساعة أخرى.

الممثل٢: وعدد الأيام؟

الممثل١: يومين.. ربما خمسة.

الممثل٢: موافق.. ولكن بشرط.. حين أبيع أوراق اليانصيب آخذ ليرتين في اليوم وحين لا أبيع أخذ ثلاث.

الممثل١: تاجر محنك.. أعطيك ست ليرات في اليوم وتطلب ليرتين؟

الممثل٢: أنا أعرف أنك تريد أن تساعدني.. تشفق.. وأنا لا أريد شفقة ولا صدقة.. أنا أعمل وأريد أن أحصل على النقود من العمل..

الممثل١: أنت ظريف جداً.. سأكشف لك سراً.. ولكن دعني أضع رسماً تخطيطياً لك.. قف مقابل النافذة.. بل استند على الباب.

(يستند الصبي على الحامل المغطى والذي يبدو الآن وكأنه باب مفتوح)

الممثل٢: ما هو السر؟

الممثل١: السر هو أنك أنت الذي تساعدني وليس العكس.. إذا استطعت رسمك كما أتخيل سأحقق ما أرغب به.. و...

الممثل٢: وتساعدني.

الممثل١: آسف.. لا.. قصدت أنني بهذا سأرد على هؤلاء (يشير إلى الصحيفة) ولكنك لن تفهم الأمور..

الممثل٢: فهمت.. هل نشروا صورة لك؟

الممثل١: لا.. بل نشروا صورة كاتب المقال.. أتريد أن تراه؟

الممثل٢: لا.. لا أريد رؤيته.. أعرفهم..

الممثل١: هي يمكن أن تحني رأسك قليلاً؟.. وكأنك ترتاح.

الممثل٢: هكذا؟

الممثل١: بالضبط هكذا.. عظيم.. بل.. مؤثر.. أظن أنها الكلمة الأدق.. مؤثر..

(تدريجياً يسود الظلام)

اللوحة الثالثة عشرة

(من الظلام يظهر سلايد لوحة بورتريه «بائع اليانصيب»، ثم تظهر سلايدات للوحات أخرى.. تتابع ظهور اللوحات عبر الإظلام وعلى أنغام موسيقى مرحة هي مزيج من موسيقى عربية وإيطالية قديمة، من كل جانب للخشبة تظهر علاقة عليها رأسان بقناعين وقد ألبست ملابس «السموكنغ»، بعد ظهور ثلاث أو أربع لوحات تبدأ همهمات ثم كلمات متفرقة.. وعموماً فإن حوار هذا المشهد مسجل ومع مضخم وصدى).

صوت١: هم.. هم..

صوت٢: أوو.. أوو..

صوت١: ها!!.. هاهاها

صوت٢: آآه.. أوو.. ها.. ها

صوت١: هووو... هي هي هي.. هووو

صوت٢: ها، ها.. بينه.. جميل (بالإيطالية)

صوت١: لا بأس.. معقول

صوت٢: حساس، شفاف.. رقيق (يمكن بالإيطالية)

صوت١: يجتهد.. ليس جديداً.. أيدي الفنانين الطليان واضحة.

صوت٢: «تبدو الشخوص الإنسانية محاطة بتناغم إيقاعي من الخط ومقدمة في جو لوني مدروس محكم، كما في الرسوم الحائطية الشرقية القديمة، تطالعك في لوحاته ثقة حية بالأشياء والإنسان..» (فاليريو مارياني – ناقد إيطالي).

(يظهر الممثل١ ويجلس بيده رزمة من الأوراق وقصاصات الصحف والمجلات، بعد أن تنتهي فقرة كلامية ينظر باتجاه إحدى العلاقتين ويلقي بورقة من يده وكل هذا متزامن مع ظهور سلايدات اللوحات والإضاءة التي تنتقل بين العلاقة الأولى والعلاقة الثانية)

صوت١: إنه يسعى للإدهاش.. ينقل تجارب الآخرين.. وبحرفية.. (صحفي محلي).

صوت٢: إنه يمثل وجه الحضارة العربية المعاصرة. (فازنتيني ناقد إيطالي).

صوت١: لم يوفر فنان إلا وأخذ منه، من مايكل أنجلو وحتى من فان كوخ.. يجب أن يتمتع الفنان بالأخلاق قبل كل شيء – (ناقد محلي).

صوت٢: «تقدم أعماله رسالة جيدة بالكلمات الفنية، غنية بالألوان المتقاربة من بعضها، وبالرغم من أن هذه الأعمال قد

قدمت من وجهة نظر فردية جداً، إلا أنها قدمت بثقة وبتعبير جيد» – (من مقالة نقدية في صحيفة إيطالية).

صوت١: مكرر للمواضيع، تكرار للألوان، مع تكرار في المصادر... لا يمكن لصرعة أن تدير رؤوسنا حتى لو نسخت عن أصول فنية إيطالية– (فنان تشكيلي محلي).

صوت٢: إن العمل الفني هو الفريد في تجربته التي لا تتكرر إطلاقا، خلال طرحه لموضوع محدد (مكرر) يضيف إلى شخصيته الفنية منهاجاً مميزاً، إلى رصيده، ساعد على تحديد معالم أعماله. وأكسبها فرديتها التي تبدو بها.. – (فنان محلي أيضاً).

صوت١: لا يمكن السكوت على السرقة وخاصة أنها تبرر نظرياً وبسذاجة.. لا يمكن إن نترك من يستخدم أساليب لا أخلاقية في عمله الحرفي، نتركه يربي أجيال الفنانين الشبان – (فنان وناقد محلي).

صوت٢: هذا الفنان يصنع قدراً جديداً لفن بلاده... إنه يمنحنا نفحة جمالية فريدة تمتزج فيها رؤيا قوية وواضحة مع خط قوي وألوان متناغمة منسجمة.. إنه صوت يصدح بشفافية الشرق ومتانة الغرب – (ناقدة إيطالية).

صوت١: بالطبع فليعمل الجميع.. ونحن بدورنا نفضح ما يخفيه أي دعي.. ليس هكذا نصنع فناً خاصاً بنا.. ليس هكذا – (فنان تشكيلي وناقد ومؤرخ وباحث.. ومهندس محلي).

(خلال المشهد يتصاعد توتر الممثل١ ويبدأ بتمزيق الأوراق والصحف، يشعل سيجارة ويشعل إحدى الأوراق بها، وحين يبدأ بإشعال ورقة ثانية، الممثل٢ يجلب العلاقتين بحيث تصبحان على جانبي الممثل١، تتوقف السلايدات عن الظهور ويقترب الممثل٢ ويخرج دفتراً للملاحظات ويبادر بسؤال عدائي النبرة وبصوت حي غير مسجل):

الممثل٢: كيف تنظر إلى أهمية النقد الفني ووظيفته في الحياة التشكيلية المعاصرة؟

الممثل١: «.. لي رأي خاص جداً في النقد الفني بصورة عامة... ولو أنه رأي حاد وصريح..

تنتهي مهمة الفنان حين يقدم إنتاجه للجمهور، ولا يحق لأي كان، طلب شرح الإنتاج الفني من الفنان، وإنما من شخص آخر يدعى الناقد الفني.. له من المؤهلات الحسية والجمالية ما يقربه من إنتاج الفنان ويدفعه إلى تذوق العمل الفني الخالص، كما له من المؤهلات الثقافية والفنية ما يدفعه...»

الممثل٢: (مقاطعاً) أرجو أن تختصر.. لدي سؤال آخر.. ألا ترى أنك تقترب من فان كوخ في مواضيعك؟

الممثل١: صحيح.. إنني أقترب من فان كوخ لكنني أعود لأبتعد عنه.. نقترب في الموضوع أحياناً كما في لوحة «الكادحون والزهور» ولكننا نختلف أحياناً في

المضمون ودوماً في الشكل إلا في بدايته، أغوص في الأعماق أحياناً، وأبقى على السطح إلى حد ما ليغوص في الأعماق، إن اقترابي وابتعادي في الفن من فان كوخ كما في التجربة الحياتية، ومن الطبيعي أن تعاطفي مع بروغيل، ميليه، فان كوخ وموديلياني هو كتعاطفي مع كل إنسان عبقري أو مع كل إنسان بائس، وإن اختلفت قيم هذا التعاطف ودرجاته.. عفواً.. هل يمكنني أن أشرب؟

الممثل٢: طبعاً، طبعاً، خذ راحتك.. أنت.. فنان..

الممثل١: هل تريد ماء.. شاياً.. قهوة أم شيئاً آخر؟

الممثل٢: أريد الحقيقة.. حقيقتك.. وأن أكشف للقراء وجمهور الفن.

الممثل١: تكشف؟.. أنت.. أتيت إلى هنا لتكشف؟ هل تعرف أين الباب؟ هل تتقن إغلاقه من الجهة الثانية؟.. يكشف... هل تعلم أنني صحفي أكثر منك في الصحافة؟.. وناقد... و... ماذا أقول.. لا سامحك الله.. وكما قيل... قبح الله وجهك... أنت.. أنت.. ببساطة خنزير، لا.. أنت.. لا أريد... أنتم.. أنا أعمل... أنا أصنع فناً.. أنتم لا ترون.. لا تريدون.. هذه ليست صحافة.. ولا هذا نقد... ولا أنتم.. ولا أنا... ولا نحن..

(خلال المقطع الأخير يختفي الممثل٢ وتبقى العلاقات، الممثل يتوجه إليها ثم وعبر كلامه يجردها من /الماسك/ القناع، ومن ملابسها.. ويقف مذهولاً وهو

يحمل رداء وقناع إحداها... يبتسم ويلقي بها جانباً، من الأرضية يأخذ رقعة الألوان وفرشاة ويتوجه إلى العلاقة (الهيكل)... يبدأ الرسم وهمياً، ثم يتحول إلى رزمة من الأوراق ليضع عليها رسوماً تخطيطية، تتصاعد حركته لتصبح أكثر انفعالاً، من بعيد يظهر صوت مسجل لناقد تتخلل كلماته بعض المصطلحات بالإيطالية):

الصوت: «إنه فنان رزين صاحب ضمير لم يترك نفسه تغتر بالمظاهر الفنية الخفيفة المفتعلة، لوحاته تبدو وكأنها ثمرة لمحاولات صعبة ولدراسات وعمل متواصل، ولكنها لم تكن أبداً نتيجة عمليات عقلية باردة جافة، إنما نتيجة لرغبة ملحة تنبع من داخله منطلقة تنبض بالحياة والشاعرية.» «إنه»(*) لم يقطع جسور الحاضر بالماضي، استفاد من خبرة الماضي وصاغها بقالب جديد... مع تجديد في معالجة الخط واللون والتركيب، يهتم جداً بإظهار الإنسان في مظاهره الأكثر حساسية والأكثر شاعرية في إطار حزين. باوبو إميليو بوتشيني (إيطاليا).

(تنخفض الإضاءة تدريجياً بينما الممثل١ يرسم وهو يستبدل الأوراق بحركة محمومة ودون أن يخفف من تركيزه وكأنه لا يسمع ولا يرى ما حوله... تدريجياً يسود الظلام..).

(*) في الأصل كانت الجملة على النحو التالي: «الكيالي لم يقطع...»

اللوحة الرابعة عشرة

(من الظلام، وأمام شاشة السلايدات؛ يقف الممثل١ بوضعية لوحة «في سبيل القضية ١٩٦٧» رجل يضع يديه المتضخمتين على فمه والذعر مرتسم على عينيه. تظهر اللوحة على شاشة السلايد.. تتتالى وضعيات الفنان التي تسبق ظهور السلايد وجميعها تنقل «شرطياً» وضعيات أبطال لوحات معرض «في سبيل القضية» الذي تحدث عن مأساة الشعب الفلسطيني قبل وقوع نكسة حزيران... يختفي الممثل١ وعلى الفور يظهر الممثل٢ وقد وضع قناعاً، ينظر إلى إحدى اللوحات ويقفز متراجعاً وكأنه أصيب بذعر مفاجئ...)

الممثل٢: ما هذه السوداوية... ما هذا التشاؤم... يجب أن يكون الفن متفائلاً..

(يمضي مسرعاً ليخرج من الخشبة، في هذه الأثناء يظهر سلايد آخر وعلى الفور تظهر الممثلة وقد وضعت قناعاً، تتحرك مسرعة.. تتلمس اللوحة.. وتقول بلكنة خاصة وبتعبير مستاء).

الممثلة: فحم.. سواد... هباب.. (تبصق) يريد أن يزاود علينا الآن سياسياً بعد أن زاود فنياً؟

(تمضي لتخرج من الخشبة فيظهر سلايد آخر وعلى إثره يظهر الممثل٢ الذي ما أن يشاهد اللوحة حتى يضرب كفاً بكف ثم يقول بغضب):

الممثل٢: لقد تجاوز حدوده... لا يمكن السكوت على هذا.. إنه يحبط الجماهير ويزرع اليأس في النفوس... إنه ليس فقط لا يتقن الرسم ولا التلوين، بل ولا يتقن قراءة المستقبل... إنه... إنه... مجنون... نعم هذا بالضبط ما يمكن قوله بعد مشاهدة هذا الهراء السوداوي... مجنون، متشائم ويجب الحجر عليه... حجره... إبعاده عن المجتمع... إقصاؤه عن التأثير على الجماهير... لا شك أنه مجنون... بالتأكيد هو مجنون...

(فجأة يسمع صوت طيران حربي ثم صوت موسيقى عسكرية، يسود الظلام ثم تظهر لوحة «إلى متى؟» وصوت المذيع يعلن بدء حرب الخامس من حزيران عام ١٩٦٧)

صوت المذيع: .. في تمام الساعة التاسعة من صباح اليوم الخامس من حزيران عام ألف وتسعمائة وسبع وستين قام طيران العدو الصهيوني بمهاجمة...

(يبتعد الصوت تدريجياً وتخفت الموسيقى وللحظة يبقى السلايد ثم يختفي ليسود الظلام الخشبة).

اللوحة الخامسة عشرة

(في الظلام يركض الممثل١، أضواء خافتة تشبه أضواء الشموع، صوت الراديو يصدح بأغنية وطنية، يقترب من حبل نشر عبر الخشبة، وقد علقت عليه أقمشة بيضاء مختلفة، [شرشف، منشفة، منديل أبيض صغير] الممثل يجلب مجموعة من اللوحات ويجمعها، يلقيها بعنف وقسوة في مجموعة وكأنها مهملات... تتوقف الأغنية ويسمع صوت المذيع يتحدث بوقار حزين).

المذيع: ... بلاغ من القيادة العامة للجيش والقوات المسلحة... أعلن ناطق عسكري ما يلي:....

(يندفع الممثل١ إلى منطقة مظلمة ويسمع صوت تحطم ويسود الصمت، يظهر الممثل١ ويتوجه إلى حيث الحبل، ينظر إليه بدهشة وحيرة، يتلفت حول نفسه ويصرخ):

الممثل: زينب... زينب...

(تظهر الممثلة، إنها تبكي وهي تحمل لفة قماشية "بقجة")

الممثلة : نعم سيدي... أتريد شيئاً؟

الممثل١: لماذا؟... ما هذا؟

(يمسك بحبل الغسيل ويهزه بعنف)

الممثلة : غسيل .. يا سيدي.

الممثل١: غسيل؟ ومنذ متى كان غسيلي كله أبيض؟ ولماذا اليوم بالذات؟ لم راية الاستسلام هذه؟... أجيبيني... من قال لك انشري غسيلاً جافاً؟ من سمح لك؟.. أجيبيني!

(يبدأ الممثل١ بإزالة القطع القماشية البيضاء عن الحبال، يتصاعد غضبه مع تصاعد المشهد).

الممثلة : الجيران.. الجميع.. يا سيدي أخاف عليك من طيران العدو.

الممثل١: طيران العدو؟ لماذا لا يأتي؟ لماذا لا يستهدفني ولوحاتي؟ لماذا لا يستهدف معرضي؟.. (يصرخ) أيها الأنذال.. تعالوا.. اقصفوا.. أنا من رسم معرض «في سبيل القضية».. أنا.. عدوكم الذي تستبيحون أرضه وسماءه؛ فيرسم.. تنتصرون عليه، فيرسم.. ثم يرسم.. ثم.. (ينظر حوله بدهشة) ثم ماذا؟ (لزينب) لماذا أنت هنا.. اهربي.. خسرنا الحرب... اهربوا جميعاً.. هيا..

(تنسحب زينب خائفة بعد أن حاولت أن تقدم للممثل١ علبة الدواء وكأس الماء، ولكنه في فورة غضبه يضرب يدها فيتساقط كل شيء، يقول بهدوء غاضب):

الممثل١: ثم.. أنا.. من سيحرق.. المعرض.. بأكمله... ثمانية... وعشرون لوحة زيتية.. سيشتعل التربنتين فيها جيداً... فتحترق... سأتلفها.. افرحوا.. لم تنتصروا فقط على وطني.. بل انتصرتم علي... على لوحاتي... لن يراها أحد بعد الآن... وهذه أيضاً.. وهذه... التي.. أخذت الكثير.. لا يهم الفن.. يهزم الفن.. يندحر...

(في هذه الأثناء يقوم بتمزيق اللوحات والرسوم، بيديه، أو بأداة حادة... تدريجياً تنخفض الإضاءة ويبدأ الممثل١ بالبكاء بنشيج يحاول إخفاءه).

الممثل١: برقية... يجب إرسال برقية.. لمن أرسل؟ لمن أشكو أو أشتم أو... آه... سأرسل لمن نُصب رئيساً للعالم.. السيد السكرتير العام لهيئة الأمم المتحدة.. تحية طيبة.. طيبة؟

(يتابع التمزيق والدموع تنهمر من عينيه، يمسحها بصفحة يده)

أستنكر العدوان الإسرائيلي الوحشي على شعبنا الفلسطيني.. أطالب.. برفع الطغيان الغاشم وأطالب بإعادة حقوق الشعب العربي الفلسطيني.. أطالب.. أستنكر... وأشجب.. نطالب.. نستنكر.. نرفض.. نطالب.. نستنكر.

(يمزق أخر رسومه وتنخفض الإضاءة وهو في حالة هستيرية والدموع تنهمر من عينيه.. يتمتم بعد لحظة صمت وقد أحنى رأسه بحركة مستسلمة).

الممثل١: حرب حزيران انتهت

كأن شيئاً لم يكن

لم تختلف أمامنا الوجوه والعيون

محاكم التفتيش عادت.. والمفتشون

والدونكشوتيون.. ما زالوا يشخصون

والناس من صعوبة البكاء يضحكون

ونحن قانعون

بالحرب قانعون.. والسلم قانعون

بالحر قانعون.. والبرد قانعون

بالعقم قانعون.. والنسل قانعون

بكل ما في لوحنا المحفوظ في السماء، قانعون..

وكل ما نملك أن نقوله:

«إنا لله وإنا إليه لراجعون»

(ينهض الممثل١، ينظر حوله، يمسح الدموع من عينيه بظاهر كفه، يبتسم بسخرية ويمضي ببطء وقد بدا متعباً يشبه العجوز.. يتابع تمتمته ويخرج من سواد الظلام على الخشبة وصوته يصدح):

احترق المسرح من أركانه

ولم يمت – بعد – الممثلون.. (*)

(*) من قصيدة «الممثلون» للشاعر نزار قباني، ١٩٦٨، منشورات نزار قباني، بيروت، ص ٢٤.

اللوحة السادسة عشرة

(من الإظلام يبدو الممثل١ وقد جلس ضمن بقعة الضوء على الكنبة، إنه يرتدي معطفاً منزلياً قديماً من الجوخ ويجلس محدقاً في بقعة واحدة، يشعل لفافة تبغ ويسعل، يشيح بيده ليبعد الدخان، يخرج من جيب معطفه علبة دواء، يفتحها ويضع على كف يده حبة منها، يتناول الكأس التي على الطاولة ولكن يبدو أنها فارغة... يسمع من الداخل صوت أوان مطبخية، يلتفت ويهم بالنداء):

الممثل١: يا.. ماذا كان اسمها؟!

(يهم بالنهوض ولكن الممثلة تظهر بملابس شغالة متواضعة، تجفف يديها بقطعة قماش، ما أن تدخل حتى تبدأ بالتلويح بقطعة القماش لتزيل الدخان، تتوجه إلى حيث يفترض وجود نافذة، يسمع صوت فتح النافذة ويغمر ضوء النهار المكان مما يجعل الممثل١ يغطي عينيه).

الممثلة : أوف... ما هذا؟ لعن الله التبغ ودخانه... ستختنق..

الممثل١: آه تذكرت.. أرجوك اجلبي لي ماء يا زينب، أريد أن أتناول دوائي..

الممثلة: والأدوية تكثر منها.. ما بك يا سيدي.. أنت تدفن نفسك في الحياة..

الممثل١: بل أدفن الحياة في نفسي.. كم عمرك يا زينب؟

الممثلة: لماذا تسأل؟.. قلت لك أكثر من مرة: خمس وثلاثون.

الممثل١: نعم.. أنت من جيلي، يا لنا من جيل.. تولد همومنا قبل أن نولد وتبقى أحزاننا وإحباطاتنا بعد أن نموت..

(في هذه الأثناء تخرج الممثلة وتجلب كأس ماء تقدمه للممثل١)

الممثلة : لا أحب هذه العقاقير التي تتناولها.. أتصورها سموماً تأخذها بإرادتك..

الممثل١: وأنا لا أحبها... ولكن.. قولي يا زينب..

الممثلة : بل أنت قل لي.. لماذا لا تتزوج ؟ ما زلت شاباً وأنت معروف في البلد، وعندك بيت وعمل..

الممثل١: كل هذا وهم يا زينب..

الممثلة : لا تغير الموضوع يا سيدي.. أنت بحاجة لامرأة وكثيرات يتمنين إسعادك..

(الممثل١ ينهض ويبدو وكأنه لا يعرف إلى أين يمضي، ينظر حوله، يسمع صوت بكاء رضيع، ينتبه وقد سيطر عليه فزع مفاجئ، ولكنه سرعان ما يهدأ، زينب ترتب المكان).

الممثل١: هذا صوت ابنك؟

الممثلة : لا تؤاخذني يا سيدي.. عادة لا يبكي ولكني جلبته معي لأنني لم أجد من أضعه لديه، فأخوته صغار..

الممثل١: هل يكفيك ما تتلقين لإعالة أولادك؟

الممثلة : مستورة والحمد لله.. بعد وفاة المرحوم زوجي..

الممثل١: اجلبي الصغير.. بسرعة..

(فجأة يدير الممثل حامل اللوحة، يبعد الكنبة ويلقي بمعطفه المنزلي على الأرض تحت الإضاءة مباشرة، زينب تطيع وقد أصابها بعض الذعر، تجلب ابنها الرضيع، يمسكها الممثل١ من كتفيها ويجلسها حيث وضع المعطف على الأرض، تطيع بخوف).

الممثل١: أرجوك، لا تفزعي.. أريد أن أرسمك، سأسمي اللوحة «أمومة»، كثيرون هم الفنانون الذين رسموا الأمومة وأود أن أفعل بدوري.. أرضعيه ولا تخجلي مني... أنت الآن موضوع..

الممثلة : موضوع؟ أنا موضوع؟

(الممثل١ يبدأ بالرسم بشكل محموم، يبدو أن زينب تهدأ وهي تناغي ابنها الذي سكت عن البكاء، فجأة يبتعد الممثل١ عن حامل اللوحات ويجلس قبالتها وهو يبتسم بوداعة).

الممثلة : ما بك يا سيدي... ألا تريد أن ترسمني؟

الممثل١: هل تتزوجنني يا زينب؟

الممثلة: أنا؟ أتزوجك؟.. أنا خادمة، وأرملة.. وأم لثلاثة أولاد.. بكلمة: مصيبة.

الممثل١: لا أعلم يا زينب من منا مصيبة أكثر، أشعر أنني مصيبة المصائب.

الممثلة : ألن ترسم؟ لقد نام وأستطيع العودة لعملي.

الممثل١: كل من يفكر بما يجري حولنا ومعنا يصبح مصيبة مجسدة.. مأساة.. كتلة ألم.. يمكنك المضي.. لا أستطيع.. لن أتابع الرسم..

الممثلة : ما بك يا سيدي؟ أنت ممتقع.. وشفتك ترتجف.. كأنك..

الممثل١: اذهبي.. دعيني وحدي..

الممثلة : ولكن يا..

(يلتفت الممثل١ إليها وينظر نظرة غاضبة فتنسحب وقد طأطأت رأسها، يلتفت ويلقي ما بيده إلى طاولة معدات الرسم، تنخفض الإضاءة لتبقى مسلطة عليه وعلى حامل اللوحات الذي ظهرت عليه خطوط رئيسية للوحة «أمومة» رسمت بالفحم.. يضع يده على اللوحة وكأنه يتلمسها ويبدأ ببكاء صامت، تفتح أصابعه وفي حركة من يحاول أن يخمش يمرر يده على اللوحة غير المكتملة وكتفاه يهتزان وصوت نشيجه يرتفع.. يختفي السلايد وتبقى اللوحة بيضاء لثوان ثم.. يسود الظلام).

اللوحة السابعة عشرة

(من الظلام تظهر شاشة السلايد وهي بيضاء، يظهر الممثل١، يقترب ليصبح أمام الشاشة بحيث لا يظهر إلا ظله، يرفع يده بحركة وكأنه يريد أن يرسم، تظلم الشاشة، تضاء مجدداً وهي بيضاء فارغة، يرفع يده المترددة مجدداً ولكنها تظلم ثانية... وهكذا عدة مرات حتى يسود الظلام لعدة لحظات، بعدها تسطع الأضواء باهرة ومن بينها الشاشة البيضاء، في كل مكان يسود اللون الأبيض، فالكنبة مغطاة بغطاء أبيض، وكذلك الطاولة الصغيرة، وعلى حامل اللوحات، لوحة بيضاء وحتى الأواني المستخدمة فإنها جميعها بيضاء ناصعة، الممثل١ فقط يحيط جسده ببطانية رمادية اللون مع أنه يحمل بيده مبسماً للسجائر وفيه سيجارة وكلاهما أبيض اللون..)

الممثل١: أين الكبريت؟ أين النار؟ هل يبحث مثلي عن نار؟ أين «القداحة»؟ النار؟ أنا الذي يلتهب داخله! تفاهة... أنا مطفأ كجذع فوجئ متلبساً وهو يطفو.. على سطح

مستنقع... عوقبت على ذلك بالإهمال... لا تشتعل فالإهمال يطفئ كل نار... أيضاً تفاهة.. أنا لا أعاني من الإهمال.. هنالك ما هو أسوأ... أطفو على سطح مستنقع... حمدا لله أنه لا رائحة له.. أم أنني لا أتشممها؟

(يلتفت فيلاحظ اللوحة البيضاء على حامل اللوحات، يشيح عنها بعصبية، ثم يقترب منها وكأنه يتسلل، ينظر إلى اللوحة فجأة ويقهقه، يجمع قبضته ويهم بضرب اللوحة ولكن يده تنفرد وتتراخى ما أن تصل إلى سطح اللوحة، يتلمسها وكأنه يرسم شخصية ما، يسمع سعال رجل، يدخل الممثل٢ وعلى الفور يصرخ):

الممثل٢: عظيم ترسم؟

الممثل١: لا.. لا.. أبداً.. أنت تعلم أنني قطعت عهداً على نفسي بألا أرسم أبداً.

(يبتعد الممثل١ عن حامل اللوحات بعصبية، الممثل٢ وقد مد يده ليصافح الممثل١، لكن الأخير لا ينتبه، يجلس وكأنه تقوقع على نفسه، يشعل سيجارة، الممثل٢ يجلس مقابله على كرسي ويحدق به).

الممثل٢: كيف الحال الآن؟ ألا تشعر بتحسن؟!

(الممثل١ لا يرد، بل يتمتم بكلمات مبهمة، وكأنه يحدث نفسه، يتابع الممثل٢ حديثه بهدوء...)

الممثل٢: اتصل بي الدكتور علاء من بيروت، يود الاطمئنان على أحوالك.. يقول..

الممثل١: هل قلت شيئاً؟
الممثل٢: أقول إن الدكتور علاء يرسل لك تحياته ويود لو تزوره خلال الأسبوع القادم في بيروت.
الممثل١: الدكتور علاء؟ في بيروت؟
الممثل٢: تذهب إلى بيروت.. سأرافقك إذا وددت ذلك..
الممثل١: وأختي معنا؟
الممثل٢: سنأخذها والأولاد كذلك..
الممثل١: الأولاد؟ .. حسن.. اذهبوا إلى بيروت..
الممثل٢: ستذهب معنا.
الممثل١: لا أريد رؤية البحر.
الممثل٢: كنت أظن أنك تعشقه.
الممثل١: يذكرني بفينيسيا.. التي أعشق..
الممثل٢: نذهب غداً؟
الممثل١: نذهب... لا..
(ينهض الممثل٢ ولكن الكلمة الأخيرة تجعله يجلس مجدداً)
الممثل٢: لماذا؟
الممثل١: لا.. لا تظن أنني مريض... أنا مرهق... أشعر وكأن جبلاً فوق صدري، فوق رأسي.. فوق يدي... عشرات اللوحات أرسمها بالأبيض والرمادي والأسود... أرسمها هنا.. في رأسي.. لا أستطيع نقلها إلى اللوحة.. هذه اللعينة مصرة على أن تبقى بيضاء..

(يقف ويضرب على اللوحة البيضاء، ينهض الممثل٢ ويمسك بكتفيه في محاولة لتهدئته.. الممثل١ يدفع يديه عنه ويعود ليجلس. يشعل لفافة ثانية بيدين مرتعشتين ويقول بهدوء وقوة).

الممثل١: جميع الوجوه التي تتراءى لي حزينة، لا تبكي، لا تصرخ.. بل تحزن تصمت..

الممثل٢: أنت تدخن كثيراً.. هل تريد أن تشرب شيئاً؟

الممثل١: لا.. شكراً...

الممثل٢: أرجوك... خفف التدخين..

الممثل١: حسن.. سأفعل ذلك يوماً..

الممثل٢: تنتظرنا في السادسة صباحاً؟

الممثل١: كما تريد..

الممثل٢: سأذهب الآن..

الممثل١: اسمع.. جميل ما كتبته.

الممثل٢: قرأته؟

الممثل١: قرأته..

الممثل٢: شكراً لك.. سأذهب الآن..

الممثل١: تحياتي لأختي... وللأولاد..

(يخرج الممثل٢ في حين يجلس الممثل١، يحدق باللوحة البيضاء الفارغة، يبدأ بالانكماش على نفسه ويتعالى نشيجه مع انخفاض تدريجي بالإضاءة باستثناء اللوحة البيضاء التي تبقى كذلك لعدة ثوان ثم يسود الظلام).

اللوحة الثامنة عشرة

(بعد لحظة صمت يضاء حامل اللوحات وعليه لوحة بيضاء فارغة، يظهر الممثل١ وهو يرتدي ثياباً منزلية، يبدو متعباً، إنه يدخن، يكح، ينتقل من زاوية إلى أخرى، ثم يجلس مقابل اللوحة الفارغة، ينهض ليمسك بالفرشاة ورقعة الألوان، يجلس مجدداً، يضع رأسه بين يديه، ينهض فجأة، يقترب من اللوحة، يرمي بالفرشاة والألوان، يشعل لفافة ويقف أمام الحامل، يلتفت إليه، يبتعد وكأنه يخاف من شيء شاهده في اللوحة، يمشي بعصبية وهو يتمتم بشيء، يمد يده باتجاه اللوحة، يقترب منها وكأنها تجذبه، يتراجع وقد أخفض يده... يجلس على الكنبة، يتقوقع على نفسه بشكل بطيء وتدريجي وهو يتمتم):

الممثل١: لا أستطيع... لا أرغب... لا... لا أريد... لن أرسم... لن أمسك بقلم أو بفرشاة... لن أرسم بعد الآن...

(يسود الظلام)

اللوحة التاسعة عشرة

(من الإظلام تظهر الطاولة في المقهى، الممثل١ يجلس وأمامه أكثر من فنجان قهوة وكذلك بعض كؤوس الشاي، بعضها فارغ والبعض الآخر فيه القليل من الشاي... على الطاولة مجموعة من الصحف وكذلك مجموعة من الرسائل... يرن جرس الهاتف، يسمع صوت الممثل٢ وهو يجيب بصوت مرتفع ليطغى على صوت أغنية تصدح من الراديو).

الممثل٢: نعم... مقهى القصر... لا أعرف... سأرى إن كان موجوداً.. لحظة...

(يظهر الممثل٢ وهو يحمل جهاز هاتف قديم أسود، يغطي السماعة بيده ويقترب من الممثل١ الذي يشير بيده دون أن ينظر إلى الممثل٢، الإشارة تعني «لا أريد...» يتابع الممثل٢ كلامه على الهاتف وهو يهز برأسه أسفاً ويحدق بالممثل١)

الممثل٢: غير موجود... نعم بالطبع سيأتي.. ماذا؟... سأنقل له طبعاً.. لا تقلق.. بالبريد... على عنواننا ستصله حتماً... مع السلامة...

(يغلق الممثل٢ السماعة ويضع الهاتف على الطاولة ويجلس)

الممثل٢: يشكرونك... من الاتحاد النسائي على الهدية.. هل أهديتهم لوحتين؟

الممثل١: أهديتهم...

الممثل٢: سيرسلون شكراً خطياً..

الممثل١: شيء مؤسف...

الممثل٢: مؤسف أن يشكروك على هدية؟

الممثل٢: نعم؟... لا... معذرة... من المؤسف أن يهدر الإنسان حياته من أجل لا شيء...

(يجمع الممثل٢ بعض الكؤوس والفناجين، يدفع بالرسائل إلى أمام الممثل١ ويمضي، الممثل١ لا يمس الرسائل بل يحدق أمامه بهدوء وهو يشعل لفافة تبغ، يرن الهاتف مجدداً ولكن الممثل١ لا يرفع السماعة، يأتي الممثل٢ مهرولاً، يرفع السماعة وهو ينظر إلى الممثل١ نظرة لائمة).

الممثل٢: ألو نعم... نعم مقهى القصر... أهلاً بك... عرفتك بالطبع يا دكتور... سأرى إن كان موجوداً.

(يرفع الممثل١ يده ليأخذ السماعة دون أن ينظر إلى الممثل٢ الذي راح يتساءل بحركة من يده)

الممثل١: ألو... أهلاً... نعم... علمت... أخبروني إنني أحلت على التقاعد لأسباب صحية... الراتب؟ لحظة...

(يخرج ورقة من جيبه ويقرأ فيها، في هذه الأثناء يمضي الممثل٢ وقد أخذ ما تبقى).

الراتب ١٤٢,٥٠ مائة واثنتان وأربعون ليرة ونصف ... نعم... لا بأس، أحاول أن أتماسك... لا... لا أرسم ... اسمع... ما هي أخبار أختي؟ والأولاد... لا... لا أستطيع القدوم... أريد أن أطلب منك طلباً... أرجوك مزق التصميم الأولي المهدى مني إليكم... نعم.. عدني بأن تمزقه... لا أريد أي أثر مما فعلت آنذاك... أرجوك... نذهب إلى بيروت... لا مانع.. سأشارك بمعارض نقابة الفنون الجميلة..

شكراً على اتصالك... لا أعتقد أنني أستطيع تجهيز معرض...لا... لا... حسن...

(يضع السماعة ويتابع جملته وقد بدا عصبياً، يتابع جملته).

الممثل١: إلى اللقاء...

(ينظر إلى الرسائل يبدأ بتفحصها تباعاً وهو يتمتم).

نقابة الفنون الجميلة، كلية الفنون الجميلة، صالة الفن الحديث، ماريو، البروفيسور كالفاني، الدكتور علاء، هالة، أختي، أختي، النقابة، ديوان مجلس الشعب، المركز الثقافي العربي، أختي، جاليري ون...، الوزارة، النقابة...

(تدريجياً يسود الظلام ويبدو الإرهاق على صوت الممثل١ وكأنه يبتعد...).

اللوحة العشرون

(الطاولة في مقدمة الخشبة وعلى جانبيها جلس الممثل٢ والممثلة، يبدو أن نقاشاً محتدماً بينهما)

الممثل٢: ومع ذلك... إنه دعي... وما أن حصل على قليل من النجاح لم يحتمله عقله.. فأصيب بالجنون.

الممثلة : عن أي جنون تتحدث.. يا زميل... فان غوخ.. موديلياني... وقبلهما دافنشي... بوش... كلهم اتهموا بالجنون... الآن البشرية تفخر...

الممثل٢: (مقاطعاً) وضعت يدك على الجرح... قلت لك إنه دعي وسخيف وسطحي، لا علاقة له بالفن... إنه يقلد كل هؤلاء الذين ذكرت... يقلدهم حتى بالجنون وقد نسي أنهم...

الممثلة : أرجوك... لا يجوز أن نتحدث عن زميل فنان بهذه الطريقة... على الأقل لا أريد أن أشارك بحديث كهذا...

الممثل٢: حسن، لنكن أكثر هدوء!... ما هذه الضجة التي تثار حول شخص أصيب بالجنون؟

الممثلة : إنني لا أوافق على أسلوب طرح السؤال... فهو ليس شخصاً بل فنان متميز.

الممثل٢: ما الذي يجعله متميزاً يا إلهي... مثل هؤلاء مرميون على أرصفة أوروبا.

الممثلة: بالضبط... قد يكون أمثاله مرميين على الأرصفة في أوربا... أما عندنا فيجب أن تكون له قيمته لأنه أثر بقوة على الحركة الفنية.

الممثل٢: بم أثر؟ أكاد أجن... قولي يا زميلة.. ما الذي أثر به على الحركة الفنية... أريد أن أفهم.

الممثلة: (بهدوء) هذه بسيطة.. لقد أدخل دماً جديداً، ونقل خبرة مرتبطة بتقنية مدروسة، تتلاءم مع مفهوم ارتباط الشكل بالمضمون.

الممثل٢: يا إلهي... أنت تبالغين... هذا الكلام لا يمكن قوله إلا... عن... عن...

الممثلة: عنه... يمكن أن نقول هذا الكلام عنه... وفوقها استطاع أن يعطي المقياس السليم بأن ليس كل انحراف عن الواقعية هو الفن الحديث(*)

الممثل٢: وماذا فعل أيضاً؟

(*) من كتاب «لؤي كيالي» للفنان ممدوح قشلان، إصدار نقابة الفنون الجميلة -٢-، سلسلة المطبوعات الفنية، ١٩٧٤، ص٢٢.

الممثلة : أنت تتهكم ولكني مؤمنة بما أقول تماماً... لقد أفهمنا أن النقل الأعمى للتيارات المعاصرة (باسم المعاصرة) ليس هو الفن الصحيح..

الممثل٢: لا تؤاخذيني... لا أستطيع إلا أن أؤكد اختلافنا التام حول أهميته، وأنا... سأحاول جهدي منع أمثال هؤلاء من التأثير ليس على حركتنا الفنية بل على زملاء لنا من الفنانين..

(تخفت الإضاءة ويبتعد صوتهما ويصبحان وكأنهما ظلين يتناقشان بالأيدي وبالضرب على الطاولة، ترتفع إضاءة أمام لوحة فارغة بيضاء على حامل اللوحات إلى جانبهما يقف الممثل١ وقد أسند رأسه إلى عمود الحامل، يتمتم بهدوء ولكن بصوت متصاعد في قوته):

الممثل١: لست أدري ماذا يقول الشاعر؟

وهو يمشي في غابة من خناجر
أطلقوا نارهم على المتنبي
وأراقوا دماء مجنون عامر
لو كتبنا يوماً رسالة حب
شنقونا على بياض الدفاتر

(يرفع الممثل١ رأسه ، يأخذ معطفاً أبيض نظيفاً ويرتديه... يتناول قلم الفحم ويقف مقابل اللوحة ويخط خطاً قوياً منحنياً على صفحة اللوحة البيضاء وهو يتابع قراءة القصيدة عن ظهر قلب وبقوة..)

الممثل١: ما بوسع السياف قطع لساني
فالمدى أزرق... وعندي أظافر(*)

(تنخفض الإضاءة تدريجياً وهو يعمل بانهماك...)

(يسود الظلام)

(*) نزار قباني، «تزوجنك أيتها الحرية»، بيروت، لبنان، قصيدة «مدخل»، ص٨.

اللوحة الواحدة والعشرون

(من الإظلام يظهر الممثل٢ وهو يرتدي ملابس صياد ومقابله يجلس الممثل١ بملابس خفيفة وهو يقوم برسم تصميمات أولية على دفتر رسم، الممثل٢ يغني أغنية من أغاني الصيادين وهو يقوم بإصلاح شبكة صيد، تأتي الممثلة وهي بملابس بسيطة، إنها تحمل راديو قديماً ضخماً تضعه بينهما).

الممثل٢: لماذا أتيت بالراديو؟

الممثلة : هس... اسمع... يتحدثون عن الأستاذ.

الممثل١: عني؟

الاثنان معاً: اسمع...

(يسمع صوت الممثل١ من الراديو مجيباً على سؤال المذيع، الممثلة تجلس وهي تستمع وتساعد زوجها بإصلاح الشباك وهما يرمقان الممثل١ نظرات إعجاب ودهشة).

صوت الممثل١: صحيح، إن الفن موقف من الحياة وإن هناك ترابطاً حيوياً بين إنتاج الفنان وسلوكيته.

صوت المذيع: (مقاطعاً) ما هو الأكثر أهمية بنظرك، تلك اللحظة التي ترى فيها أبطال لوحاتك التعساء ينهلون فقرهم، أم اللحظة التي ترسمهم بها؟

صوت الممثل: لحظة رسم هؤلاء الناس بالألوان والخطوط تضعني في موقع المسؤولية حيالهم وهذا هو الأكثر أهمية.

صوت المذيع: يقولون إنك تقترب من فان غوخ في مواضيعك!

صوت الممثل١: صحيح أنني اقتربت من فان غوخ لكنني أعود لأبتعد عنه... نقترب في الموضوع أحياناً «كالكادحين والزهور» لكننا نختلف أحياناً في الموضوع ودوما في الشكل ومن الطبيعي أن تعاطفي مع بروغيل، ميليه، فان غوخ وموديلياني هو كتعاطفي مع كل إنسان عبقري أو كل إنسان بائس، وإن اختلفت قيم هذا التعاطف ودرجاته.

صوت المذيع: أراك أحياناً في منتهى الصفاء الإنساني ملاكاً هادئاً كصباح صيفي... وأحياناً كالصقر في لياليك العاصفة... هل لك أن توضح؟

صوت الممثل١: رؤيتك لي بهذه الصورة الجميلة صحيحة وليس هناك ما يدعو إلى التوضيح، إلى التصحيح...

صوت المذيع: ما المقصود من نظافة اللون والخط... إلى درجة التساؤل، لماذا؟

صوت الممثل١: للوصول إلى منتهى الصفاء الإنساني...

صوت المذيع: إلى أي مدى تعتقد بالتصاق الفن بالسياسة أو هل من الممكن أن يخدم الفن آراء سياسية؟؟

صوت الممثل١: من الطبيعي أن يكون العمل الفني في مضمونه سياسة. وليس من الضروري أن يخدم الفن آراء سياسية؛ فالفنان أكثر بعداً في الرؤية من الساسة..

صوت المذيع: ما هي أزمتك الحقيقية التي مررت بها؟ وما هي المعاناة التي سببتها لك تلك الأيام العصيبة من حياتك كفنان؟

صوت الممثل١: أزمتي الحقيقية أكبر من أن توصف في كلمات أو تترجم في لوحات، هذا تفسير لها. أما ما هي المعاناة التي سببتها لي الأيام العصيبة تلك من حياتي كفنان فلك أن تنظر وأن تدقق وأن تلاحق لوحاتي ومدى قربها أو بعدها من الآخرين.

صوت المذيع: ما هو التوازن الذي تريد طرحه من خلال أعمالك عن البؤساء؟(*)

(خلال سماع المقابلة تنهض الممثلة وتختفي لعدة دقائق وتعود بعدها وهي تحمل صينية عليها طعام، الممثل٢ يتابع عمله وهو يهز برأسه موافقاً في حين يتابع الممثل١ الرسم، تصدح الموسيقى بعد إنتهاء المقابلة، ينهض الممثل٢ ويشير إلى الطعام):

(*) (البعث الأسبوعي)، رقم العدد ٧٨٣٦، تاريخ ١٩٨٨/١٢/١٩، ص ٦، "الفنان لؤي كيالي".

الممثل٢: هل تمالحنا؟ تفضل.

الممثل١: أشعر بجوع شديد... هواء البحر نافع لأمثالي وخاصة أن رائحة السمك المقلي رائعة.

الممثلة : لا تؤاخذنا.. السمك صغير الحجم.

الممثل٢: (بخجل) السمك الكبير نبيعه...

الممثل١: السمك الصغير أكثر لذة وأسهل أكلاً...

الممثلة : صحة وعافية... سأجلب لكما الشاي...

(يجلس الإثنان في حين تمضي الممثلة وقد أخذت الراديو معها... يبقى صوت البحر، تنخفض الإضاءة تدريجياً، يسود الظلام).

اللوحة الثانية والعشرون

(تضاء الخشبة بضوء مفاجئ، يدخل الممثل١ وهو يحمل حامل اللوحات ويضعه في الفراغ المضاء جيداً، وراءه تدخل الممثلة وهي تحمل حقيبة يد والممثل٢ وهو يحمل حقيبة سفر، يتكلم الممثل١ وعلى الفور يغادر المكان ليعود وهو يحمل علبة كرتون يضعها إلى جانب الأغراض).

الممثل١: تفضلوا... اعتبروا البيت بيتكم

الممثل٢: مبروك... ألف مبروك...

الممثلة : فرحت لك... من كل قلبي..

الممثل١: أصبحت من أصحاب الأملاك... سأفتح النوافذ فالجو خانق قليلاً..

الممثلة : (تهمس للممثل٢) يسمي هذا بيتاً؟

الممثل٢: (هامساً) لا تزعجيه... ألا ترين أنه فرح باقتنائه..

الممثلة : ولكنه كقن الدجاج... ودفع به كل ما يملك وقرض البنك أيضاً..

الممثل١: اذهبي لتري المطبخ والباب الأيمن باب الحمام... وهناك غرفة النوم...

الممثل٢: ألا تعتقد أن ثمنه مرتفع قليلاً؟

الممثل١: لم أناقش صاحبته، أعجبني فأعطيتها ما طلبت.

الممثلة : بحاجة لبعض الإصلاحات... وخاصة المطبخ والمرافق الأخرى..

الممثل١: سيتم كل شيء... سأفعل ذلك بيدي... لا يشتري أحدنا بيتاً كل يوم... وأنا في الأربعين من عمري..

الممثلة : تسعة وثلاثون... لم تبلغ الأربعين بعد..

الممثل٢: أختك لا تريد أن تزيد عمرك لكي لا يزداد عمرها..

الممثل١: (يتابع) أليس فظيعاً ألا يستطيع أحدنا شراء بيت خاص به إلا حين يبلغ الأربعين من عمره... المسيح صلب وهو في الرابعة والثلاثين..

الممثل٢: لا تفكر هكذا... المهم أنك تملك بيتاً الآن..

الممثلة : والأهم أن تبيع معرضاً آخر وتتزوج..

(يصمت الممثل١ ويبدو كأنه يفكر... يتبادل الممثل٢ والممثلة النظرات).

الممثل١: يجب أن أرسم... حين أفكر بعدد الناس الذين لا يملكون بيوتاً.. لا يملكون سقفاً يحتمون به، أشعر أنني حصلت على مالا أستحق... المشردون يجوبون أزقة العالم، ينامون على الأرصفة ويلتحفون بفقرهم وتعاساتهم، ليس في الهند أو افريقيا فقط... رأيتهم في إيطاليا... في اليونان... وهنا... في كل مكان... هل أفيهم حقهم إن قمت برسم واحد أو اثنين منهم؟ الشقاء يصبح

موضوعاً للجمال... الحزن شعور لا إنساني... وأنا أخشى أن أكذب في لوحتي... ألا أعبر عن..

(يقترب الممثل٢ والممثلة منه ويعانقانه وهما يحاولان إخراجه من وجومه).

الممثل٢: لا تفكر هكذا... أنت كفنان تقوم بواجبك وتتحمل المسؤولية تجاههم... يكفيك هذا..

الممثلة: يجب أن تفرح.. لقد نقص المشردون واحداً... ونرجو أن ينقص العزاب واحداً...

الممثل١: ليزداد عدد الأفواه الجائعة... أو الأفواه التي تغتصب لقمة الغير...

الممثل٢: لا تعجبني سوداويتك... هيا بنا... ألست جائعاً؟ أدعوك إلى المطعم لنحتفل بشراء البيت.

الممثلة : فكرة رائعة... نحن لم ندخل مطعماً منذ مدة طويلة...هيا بنا..

الممثل١: كما تريدان... رغم أني كنت متحمساً للبدء بالعمل، جلبت معي كل شيء..

الممثل٢: لن يهرب العمل منك، ابدأ منذ صباح الغد أما الآن فهيا..

الممثلة : من أجلي... دعنا نمضي إلى المطعم..

الممثل١: من أجلك... ولأني جائع... هيا بنا..

(يخرج الثلاثة ويسود الظلام بعد أن تبقى الإضاءة لثوان على حامل اللوحات الفارغ).

اللوحة الثالثة والعشرون

(يسمع صوت إلقاء حقيبة وترتفع الإضاءة، يدخل الممثل١ ويبدأ بجمع أشياء مبعثرة على الكنبة والشماعة والطاولة، وراءه يدخل الممثل٢، إنه يتابعه ويحاول تهدئة ثورته).

الممثل٢: أرجوك أن تهدأ... اسمعني فقط.

الممثل١: ماذا يريدون مني؟ أن أترك البلد؟ سأفعل ما يريدون...

الممثل٢: يا عزيزي... لا يمكن أن نعيش وأذاننا صاغية لكل ثرثار وحاسد.

الممثل١: ثرثار وحاسد؟ أنت تعرف أنه إجماع... اتفق الجميع على أنني فنان فاشل.. فنان؟ بل لا علاقة لي بالفن... ما أقوله يستدعي ثورة غاضبة، هجوماً شرساً، فظاظة ووقاحة، أنا... أنا لا أفهم سبب هجوم ذاك الصحفي على أعمالي، ولا هجوم ذاك الكاتب على لوحاتي، ولا أستطيع تفسير أقوال ذاك الرسام حول شخصي، ولا الناقد حول أخلاقي.. كل شيء فيّ أصبح مباحاً لهم... وكأنني بلت في باحة دارهم أو قتلت لهم ولداً...

الممثل٢: أنت لا ترى إلا الجانب الأسود.. معرضك.. الأخير كان موفقاً للغاية، لوحاتك تباع هنا وفي العاصمة وفي بيروت.

الممثل١: ومعرض عمان؟ أنسيت ما حدث هناك؟

الممثل٢: خطأ في الاجراءات... يمكن أن يحدث هذا مع فنان غيرك..

الممثل١: ولماذا يحدث معي بالذات؟ لماذا لا يحدث إلا معي؟

الممثل٢: تريد أن تسافر لا بأس... ولكن يجب ألا تحرق الجسور..

الممثل١: وهل أبقوا على شيء؟... كلهم لا يريدونني... سأختفي... سأمضي إلى روما... سأكون هناك غريباً، مهجوراً، مغترباً، مجهولاً...

الممثل٢: (بهدوء) أعلم أنك مفرط الحساسية، وأعلم أنك أجهدت نفسك وأن هناك شيئاً من اللاعدل في علاقتهم..

الممثل١: لا عدل؟ تقول لا عدل؟... هل يريدون مني أن أموت جوعاً؟ أم أن أسجن مثل بوش؟ أم يريدون إحراقي مثل جوردانو برونو... اللاعدل يمكن أن يؤدي إلى جريمة... يمكن

الممثل٢: ألا تريد أن تقرأ مقالتي عن معرضك الأخير؟

الممثل١: أقرأ؟ وهل هذا مهم؟ دعهم هم يقرؤون.

(يهدأ فجأة ويجلس وقد انتهى من جمع الأشياء داخل الحقيبة، يجلس على حافتها)

الممثل١: أنا آسف.. أعلم أنك من القلة التي تؤمن بي وبما أفعل وبما أرسم... ولكن، يمكن لأي عاقل أن يجن لو تعرض لما أتعرض إليه... لقد بعت البيت...

الممثل٢: بعته؟ لكنك لم تسدد قرضه حتى الآن.

الممثل١: أترك لك المبلغ المتبقي.. قم أنت بتسديده عني...

الممثل٢: ألا تنوي العودة؟

الممثل١: لا... لا أظن.. مع أنني أغادر وشعور بالعار يتملكني، إنني أهرب؛ ولكن هل تعلم لماذا؟ لأنني أحلم أن أرسم، أحلم أن أعيش في مناخ أفضل وأن أعمل... لدي طاقات وأفكار ومشاعر، تصبح كلها سخيفة هنا، لا قيمة لها؛ لا أهمية... فأنا نفسي لا قيمة تذكر لي...

(ينهض ويحمل الحقيبة وينظر حوله فيرى الشال الأحمر الصوفي، يضعه حول عنقه ويشير للممثل٢ أن يمضي أمامه، ينظر مودعاً المكان ثم يمضي قائلاً):

الممثل١: لست حزيناً على بيع شقتي هذه... بقدر حزني على لوحاتي التي رسمت هنا ثم بيعت...

(يسود الظلام)

اللوحة الرابعة والعشرون

(من الظلام تصدح أغنية إيطالية شائعة في منتصف السبعينات، تتصاعد إضاءة فنرى طاولة غطيت بغطاء خمري اللون وقد قلبت الكراسي فوقه، الممثلة ترتدي ملابس عادية، بنطال جينز وكنزة صوفية، إنها تقوم بالتنظيف وتغني مع الأغنية، يسمع رنين جرس مما يوضع على أبواب البارات، دون أن تتوقف الممثلة عن العمل تقول بشيء من الفظاظة):

الممثلة : لا تدخل الهواء البارد... لم يفتح المقهى بعد، والبار أغلق قبل ساعات..

(يظهر الممثل١ وقد التفح بلفحته الحمراء القديمة ويبدو أنه يعاني من البرد فهو ينفخ على يديه، لا ينظر إليها بل يبدو عليه الخجل).

الممثل١ : المعذرة (بالإيطالية)... أردت أن أشرب القهوة... معك و... نتحدث.

الممثلة : هذا أنت؟ ادخل، ادخل... طوال الليلة الماضية وأنت صامت تحدق بي. والآن تريد أن نتحدث؟ حسن... تفضل... سأجهز القهوة في الحال.

الممثل١: هل أساعدك؟

الممثلة : شكراً على هذا اللطف... أنزل الكراسي... ريثما أحضر القهوة...

(يبدأ الممثل١ بإنزال الكراسي بعد أن وضع دفتراً صغيراً للرسم على الطاولة في حين تختفي الممثلة)

صوت الممثلة: هل تحب القهوة بالحليب؟

الممثل١: لا... عذراً... أشرب القهوة بلا سكر ولا حليب..

صوت الممثلة: لا أحسد معدتك... تبدو مريضاً

الممثل١: البرد، اختلاف الطقس... الطقس الآن دافئ في بلادي رغم فصل الشتاء.

(تظهر الممثلة وهي تحمل معدات القهوة، تضعها على الطاولة وتمضي، في حين يجلس الممثل١ ويبدأ بتقليب دفتره)

صوت الممثلة: هل أنت يهودي؟

(فجأة ينهض الممثل١ لدرجة أن الكرسي يسقط وراءه، يأخذ دفتره ويعيد لفحته إلى عنقه، تظهر الممثلة وهي تحمل الماء الساخن في إبريق زجاجي)

الممثلة : ما بك؟ ماذا حدث؟

الممثل : لا شيء سأمضي.

الممثلة : والقهوة؟

الممثل١: اشربيها وحدك... وداعاً...

الممثلة : آه، فهمت... أنت معاد للسامية..

الممثل١: هراء... أنا أيضاً سامي... بمعاييركم ذاتها...

الممثلة : ما المشكلة إذن؟ ستبرد القهوة...

الممثل : المشكلة أنك تضعين المعتدي جنباً إلى جنب مع المعتدِى عليه... وتساوين بين المغتصِب والمغتصَب..

الممثلة : إذا كنت عربياً، فاهدأ... واشرب القهوة... واعلم أنني لست يهودية ولا أكن لهم حباً خاصاً... يمكن القول أنني حيادية تجاههم..

الممثل١: لست ضد اليهود... بل ضد الصهاينة.

الممثلة : بالنسبة لي لا فرق... ألن تجلس؟

(يعود الممثل١ إلى كرسيه، ولكن دون أن يضع دفتره أو ينزل لفحته، يبدأ برشف القهوة بصمت)

الممثلة : منذ البارحة وأنت تتشبث بهذا الدفتر... هل أنت رسام؟

(يهز الممثل١ رأسه إيجاباً فتمد يدها، يتردد في إعطائها الدفتر ولكنه يمتثل لها أخيراً)

الممثلة : لا تخف... لن أكون قاسية في انتقادي لرسومك.

(تفتح الدفتر، تبدأ بمشاهدة الرسوم، يبدو الاهتمام من أسلوبها في مشاهدة الرسوم ومن نظراتها المقتضبة باتجاهه... فجأة... تضع رأسها بين يديها وتتمتم):

الممثلة : يا إلهي.. ما كل هذا الحزن؟ هل هذه أنا؟.. لماذا فعلت ذلك؟ لماذا أخرجت ما بداخلي إلى الورق... أنا أملك هذا البار... وأملك الديون التي عليه... أملك زواجاً خائباً وعشيقاً مدمنا على المخدرات... كيف قرأت كل هذا؟ كيف عرفت كل هذا عني؟

الممثل : أنا آسف... لم أكن أقصد... الإساءة إليك... سأمزق...

الممثلة : (بقوة) ماذا؟ تمزقها؟ لا شك أنك مجنون.

الممثل١ : لست أول من يقول لي ذلك.

الممثلة : ومعتوه... وأبله... وأحمق... خذ... من الممكن أنك مبتز... خذ هذا كل ما لدي...

(تنهض وتأتي بالنقود من الصندوق، ترميها على الطاولة... تعود لتختفي وتجلب نقوداً معدنية).

خذ... أريد أن أحتفظ بهذه الرسوم... أريدها لي... أنتم لا تشبعون، لا أنت ولا زوجي ولا عشيقي... لم يبق لدي نقود... خذ كل شيء... فقط اترك لي هذه الرسوم... أنت أول من نظر إلي... فرآني... خذ كل شيء واترك لي حقيقتي... اتركني في هذه الرسوم.

الممثل : (يتمتم) المعذرة.. المعذرة... لا تؤاخذيني... سأترك لك الدفتر.

(يتراجع الممثل١ ويخرج، ينبئ عن ذلك صوت جرس الباب... فجأة تنتبه الممثلة إلى ذلك، تنظر حولها، تنهض وتركض باتجاه الباب، تفتحه ثم تعاود إغلاقه، تعود والدهشة تتملكها)

الممثلة : لا شك أنه مجنون... كنت سأدعوه للرقص... وممارسة الحب... وعشاء... كنت سأزيل عنه حزنه و...

(فجأة تلتفت لتقعي على ركبتيها وترسم شارة الصليب على صدرها)

الممثلة : يا أمنا التي في السماء... فليعد... إنه بحاجة إلي... كما أنا بحاجة إليه...

(يسود الظلام بينما لا تزال الموسيقى الإيطالية)

اللوحة الخامسة والعشرون

(ترتفع الإضاءة تدريجياً على طاولة المقهى المحلي الذي ظهر في مشاهد سابقة، الطاولة ذاتها وغطاؤها ذاته والإبريق المعدني والكؤوس، وراء الطاولة يجلس الممثل١، إنه مهمل الثياب، يجلس صامتاً يحدق في نقطة واحدة ثابتة، بين يديه كيس ورقي فيه رزمة ضخمة من النقود، يأتي (النادل) الممثل٢، إنه يحمل صينية عليها فنجان قهوة وكأس ماء، يضعها أمام الممثل٢ الذي يخرج من جيبه علبة معدنية صغيرة ويتناول من داخلها حبة دواء يضعها في فمه ويشرب جرعة ماء وراءها، يشعل لفافة).

الممثل٢: هل تريد شيئاً آخر؟

الممثل١: ...

الممثل٢: منذ عودتك لم تتكلم... وهذا رابع فنجان قهوة اليوم...

الممثل١: لا تخش شيئاً... سأدفع ثمن الفنجان مضاعفاً..

الممثل٢: معاذ الله أن أفكر بالنقود... المقهى بمن فيه ملك لك فقط..

الممثل١: قلت لك سأدفع مضاعفاً... أترى هذا الكيس... إنه ممتلئ بالنقود... خذها كلها... جدد مقهاك إذا أردت..

الممثل٢: اعذرني... لم أكن أقصد إزعاجك.

الممثل١: لا تصدق أن في الكيس نقود؟ انظر

(يفتح ويقلب الرزم النقدية على الطاولة، يتراجع النادل وينسحب وقد شعر أنه أخطأ، في حين يتابع الممثل١ كلامه دون انفعال)

الممثل٢: لا أحد يصدق أن مشكلتي ليست بالنقود... هذا مبلغ بسيط جاءني من غاليري واحد في بيروت.. لست بحاجة إليه.. لست بحاجة لشيء.. لا أرغب بشيء.

(تظهر الممثلة وهي في ثياب متسولة، تقترب من الطاولة، دون أن ينظر إليها يأخذ رزمة ويقدمها لها بحركة مفاجئة تصيبها بالذعر فتقفز متراجعة)

الممثلة : بسم الله الرحمن الرحيم... يا أستاذ أنا.. أقصد... أعطني مما أعطاك الله.

الممثل١: خذي... الله أعطاني... وأنا غير محتاج... خذي..

الممثلة : ليرة... أو نصف ليرة تكفي..

الممثل١: لا توجد عندي ليرة... ألا تنفع هذه الرزمة؟

الممثلة : حماك الله... وعفى عنا... لا تسخر مني يا سيدي... لست سارقة ولا محتالة، إذا لم ترغب بإعطائي قل: فليعطك الله... فقط لا تسخر..

الممثل١: لا أسخر منك... وليس معي نقود غير هذه..

الممثلة : أدام الله نعمتك عليك... وأبقى لك صحتك... لا تؤاخذني الحاجة اضطرتني للتسول ولكني لن أكررها... لا تغضب يا سيدي... الحاجة قاتلة... الوداع... لن أتسول ثانية حتى ولو مت جوعاً... الوداع يا سيدي..

(طوال مدة الحوار السابق تبقى يد الممثل١ ممدودة برزمة النقود، رغم أن الممثلة تغير مكانها... تمضي ولبرهة تبقى يده ممدودة ثم ينتبه لذلك فيلقي برزمة النقود على الطاولة ويشعل لفافة أخرى ويعود للتحديق في نقطة واحدة ثابتة، يظهر الممثل٢، الصبي بائع اليانصيب، إنه على عكازيه وقد ظهر شارباه الدقيقان):

الممثل٢: يبدو أنك ربحت جائزتين دفعة واحدة...

الممثل١: كبرت...

الممثل٢: وازدادت مشاكلي..

الممثل١: أنت أيضاً؟ لا أظن أنهم يلاحقونك الآن... أصبحت رجلاً وتستطيع أن تدافع عن نفسك..

الممثل٢: أستطيع بدوري ملاحقة الصبية... لو أردت...

الممثل١: هذه قذارة.

الممثل٢: أمزح فقط.. تزوجت وامرأتي حامل.

الممثل١: هكذا باكراً؟

الممثل٢: توفي والدي... وأمي مصابة بالسل... وسجنت إحدى أخواتي... سرقة..

الممثل١: هل تعوضك هذه النقود.. خذ منها ما تشاء.

الممثل٢: نفسي تأبى أخذ أي شيء دون عمل...

الممثل١: خذ... كالدين..

الممثل٢: الحمد لله... لا أستدين... قل لي يا سيدي ما بك؟

الممثل١: ما بي؟

الممثل٢: أراك متغيراً بعض الشيء... مريض لا سمح الله؟

(في هذه الأثناء يتناول الممثل١ حبة أخرى من العلبة المعدنية، يشرب الماء..)

الممثل١: مريض... ولكن مرضي لم تسمع به، لم يسمع به أحد... مريض بوطني... مريض من اللامبالاة والإهمال والقسوة... مريض بكل ما يحيط بي وبمن يحيط بي... مريض بانعدام الرغبة، بالإحباط، باللاجدوى...

(يشعل سيجارة فيكح بشدة، يتراجع الممثل٢ ويختفي، الممثل١ يتابع كلامه وهو يكح، يعود الممثل٢ وهو يحمل كأس ماء يضعها أمام الممثل١ الذي يتناولها ويجرع منها جرعات مقتضبة)

الممثل١: هل تعلم لماذا يختفي القمر؟ يعتقد الجميع أن ظهور الشمس تجبره على الاختفاء والحقيقة أنه يختفي لأن الناس ينامون، وبهذا ينصرفون عن النظر إليه، فيخجل ويتوارى... يعود في اليوم التالي، تحرضه على ذلك أغنية أو قول شاعر أو تنهيدة عاشقة وهي تنظر إلى

السماء... يعود وكله أمل بأن يأخذ قوته من عيون الناس ورغبتهم برؤية جماله... ولكنهم ينامون من جديد... يوماً، يختفي نهائياً... سيتعب من أمله بأن يتابع الناس التحديق به والتغني بجماله... عندها... سيختفي نهائياً... إلى الأبد...

(ينظر الممثل٢ حوله وقد أصيب بالدهشة وبشيء من الإحراج وكأنه لا يعلم ماذا يفعل تجاه تدفق كلام الممثل١ الذي يتجرع الماء وفجأة ينهض ويمشي مبتعداً وصافقاً باب المقهى بقوة، الممثل٢ ينظر إلى النقود وفي إثر الممثل١، يهرول وراءه وهو يصرخ):

الممثل٢: يا أستاذ... نقودك... نسيتها على الطاولة.... يا أستاذ... توقف، النقود... مبلغ ضخم كهذا لا يترك... يا أستاذ...

(تدريجياً تنخفض الإضاءة حتى يسود الظلام)

اللوحة السادسة والعشرون

(من الإظلام تظهر شمعة تشتعل إلى جانب سرير يستلقي عليه الممثل١، السرير يشبه أسرة المشفى ولكن غطاء أحمر يغطيه بأكمله، الإضاءة خافتة ومسلطة على السرير تحديداً، الممثل١ مستلق على ظهره وهو يتمتم فلا تظهر سوى بضع كلمات متفرقة من الكلام، يطفئ اللفافة وعلى الفور يشعل أخرى).

الممثل١: ... لنا أهمية... لنكتب مذكرات... ورسائل... أحرقتها قبل سفري... لم أستخدم اللون الأحمر يوماً... علي أن أتصل بصلاح وممدوح و... أبدل سجائري العطنة... لا قدرة لي على رسم البورتريه... أراهم أمامي الآن... معرض غاليري «عليا»... المعرض الشخصي الثالث عشر... سيكون... لن أرسم أشواكاً... لن... بل... (يشعل سيجارة جديدة، يشرب من زجاجة ماء بعد أن وضع حبة دواء في فمه وحين يضعها على الطاولة الصغيرة التي إلى جانب السرير تسقط، يسيل منها الماء، يتابع التمتمة..):

الممثل ١: «أتكوم...
على رمال نهديك... متعباً
كطفل لم ينم منذ يوم ولادته»(*)
(يرفع الزجاجة بصعوبة، يتابع التمتمة ولكن بوضوح الآن):
«لن يكون ذهابك مأساوياً
كما تتصورين...
فأنا كأشجار الصفصاف
أموت دائماً..
وأنا واقف على قدمي...» (**)

الممثل ١: أجلب ماء... سأعطش خلال الليل... الموت عطشا وفي البحر؟... لم تأت زينب... الزواج والحب بعد المعرض الثالث عشر... هل بقي ماء؟

(يمد يده بوهن شديد، يحاول الإمساك بالزجاجة ولكن يده تقبض على الفراغ، يسقط الشمعة، يسود الظلام، عبر إضاءة سفلية حمراء يتصاعد دخان يتسلل رويداً، رويداً، مع تصاعد ضجيج مزعج، الدخان يرتفع حول السرير... يسود الظلام).

(*) نزار قباني «١٠٠ رسالة حب»، منشورات نزار قباني، الطبعة الثانية عشرة، آذار (مارس) ١٩٨٢، ص ٨٩ – ١٥٥.

(**) نزار قباني «١٠٠ رسالة حب»، منشورات نزار قباني، الطبعة الثانية عشرة، آذار (مارس) ١٩٨٢، ص ٨٩ – ١٥٥.

اللوحة السابعة والعشرون

(ترتفع الإضاءة تدريجياً، ما زال الدخان يلف المكان حول السرير، تقترب الممثلة وهي بثياب ممرضة، إنها تحمل منشفة تزيل الدخان بها، يظهر السرير المغطى بملاءة بيضاء وبشيء يشبه "الناموسية" بشكل هرمي فوق السرير حيث لا يظهر سوى رأس الممثل١، جهاز "السيروم" معلق فوق السرير، تقترب الممرضة من الممثل١، تقول له بحنو):

الممثلة : كيف الحال؟... أفضل؟

الممثل١ : عيناك... ج.. ميل... تان...

الممثلة : وعيناك أيضاً.

الممثل١ : م.. م.. مش... وه؟

الممثلة : لا.. ولكنك مقمر جيداً...

(تمسك بيده وكأنها تريد جس نبضه، تقفز مبتعدة وهي تصرخ...)

الممثلة : دكتور... الرسام المحروق... دكتور...

(يظهر الممثل٢ وهو يرتدي ثياب طبيب... يبدأ العمل بسرعة، يفحص النبض، يضع جهاز الضغط...)

الممثل٢: لم يمت رسام بين يدي... لن أساعدك على ذلك... هيا... أوف... عاد النبض... (ينادي) يا آنسة... يا آنسة...

(تظهر الممثلة بملابس عادية، يبدو عليها القلق)

الممثلة : طمئني يا دكتور... هل حالته خطرة؟

الممثل٢: من أنت؟ كيف دخلت إلى غرفة العناية المشددة؟

الممثلة : أنا أخته... أرجوك قل لي..

الممثل٢: لا بأس... سنرى... أرجوك... الغرفة معقمة وأنت بهذه الملابس.

الممثلة : سألقي عليه نظرة ثم أخرج

الممثل١: (يتمتم) لا تخافي... بخير... أشعر بعطش..

(في هذه الأثناء يدفع الممثل٢ الممثلة برفق ليخرجها، تخرج، يهم بالمضي؛ ولكن الممثل١ يتمتم)

الممثل١: دكتور... كيف... حدث ذلك؟

الممثل٢: كنت... تحت تأثير الدواء المهدئ... وجدت علبة منه أمام سريرك.

الممثل١: هل... سأعيش؟

(يهز الممثل٢ رأسه وكأنه يجيب على سؤال الممثل١... تدخل الممرضة، يتهامس الطبيب وإياها)

الممثل١: هل يمكن... خفض النور... عيناي...

(تندفع الممثلة لتخفض النور، يتبعها الممثل٢، تنخفض الإضاءة بحيث لم يعد يظهر سوى ظل السرير.. من

جانبي الخشبة يظهر الممثل٢ وهو بملابس بائع الفستق الحلبي الجوال، يحمل سلة وميزاناً بسلاسل، ويضع "خرجاً" قماشياً على كتفه وقد اعتمر قبعة دائرية صغيرة ولف عنقه بحطة، أما من الجهة الأخرى فتخرج "الشحاذة" التي صادفها في اللوحة الخامسة والعشرين).

الممثل١: أتيتما؟

الممثل٢: أنت استدعيتنا... هل تريد شراء فستق عاشوري؟

الممثل١: آسف...لا أستطيع شراء شيء الآن... ولا أستطيع أن أرسمك رغم أنني فكرت بذلك كثيراً... حين كنت في إيطاليا..

الممثلة : وأنا... تريد أن ترسمني أيضاً؟

الممثل١: أريد... سأدفع لك عشر ليرات لقاء وقوفك أمامي...

الممثلة : يقال أنكم لا تعرفون الله...

الممثل١: نحن؟

الممثلة : أنتم... عليك أن تعرف أنني "شحاذة" شريفة.

الممثل١: وأنا فنان شريف... على الأقل هكذا كنت أعتقد..

الممثلة : أحرقوك؟

الممثل١: أحرقتهم... طهرت جسدي منهم.

(في هذه الأثناء يختفي الممثل٢ وحال انتهاء الممثلة من حوارها حتى يظهر بمظهر الناقد وقد وضع قناعاً على وجهه)

الممثلة : معك نصف ليرة؟

الممثل١: لا أعلم... قد تكون ملوثة بالهباب.. وسوداء...

الممثلة : الفضة لا يهمها الهباب... افركها بقشر الليمون فتصبح جديدة..

الممثل١: سأعطيك ليرة... أقصد... ستكون ديناً علي...

الممثلة : المهم أن يكتب لك الشفاء..

(تختفي الممثلة، الممثل٢ يمسك بكمية من الأوراق).

الممثل٢: لن تستطيع قراءة ما كتبت عنك الآن؟

الممثل١: لا أظن... وقد أحتاج لنظارة في المستقبل...

الممثل٢: أعتقد أنني موضوعي.. ولكن قد أضطر لتغيير بعض الأشياء... نظراً للظروف الراهنة...

الممثل١: تقصد حروقي؟

الممثل٢: وانقطاعك عن الرسم...

الممثل١: كم الساعة الآن؟

الممثل٢: اليوم الثالث... الساعة الخامسة والربع...

(يقول الممثل٢ ذلك ويمضي، تظهر الممثلة بثياب الممرضة، تقوم بإعطاء الممثل١ حقنة، تتمتم بتعاطف):

الممثلة : بالشفاء...

الممثل١: هل يوجد زوار؟

الممثلة: الزيارات ممنوعة تماماً... هناك الكثير من الورود في الخارج...

الممثل١: بينها ورود صفراء؟

الممثلة : أغلبها صفراء

الممثل١: كم أصبحت الساعة الآن؟

الممثلة : اليوم السادس... الساعة التاسعة صباحاً...

(تختفي الممرضة، يظهر الممثل٢ بملابس عسكرية)

الممثل٢: لم ترسمنا...

الممثل١: لم أرسمكم... عانيت من أجلكم... وأحياناً منكم...

الممثل٢: نظرات المثقفين سوداوية دوماً... لا ترى سوى الإخفاق...

الممثل١: لست مثقفاً... أنا فنان... مؤخراً كانوا ينادونني في إيطاليا "مايسترو" معلم..

الممثل٢: لو كنت معلماً لقمت بتمجيدنا..

الممثل١: لستم بحاجة لأمجاد أعطيكم إياها... إما أن تصنعوها بأنفسكم أو..

الممثل٢: اليوم التاسع عشر، والآن الساعة تجاوزت الحادية عشرة ليلاً.

الممثل١: رأسي تؤلمني... وأشعر..

(ينسحب الممثل٢ وتدخل الممثلة، إنها منظفة في المشفى، تقوم بتنظيف الغرفة).

الممثلة : تتألم يا بني؟

الممثل١: أتألم... روحي تحترق.

الممثلة : الروح لا تطفأ... كل شيء يطفأ إلا الروح.

الممثل١: آسف... أسبب لك القرف؟

الممثلة : مهنتي يا بنيّ... يقولون إنك رسام؟
الممثل١: كنت... قد أعمل دهاناً إذا نجوت..
الممثلة : كافة الأعمال خير وبركة... تريد شيئاً؟
الممثل١: ماء
الممثلة : سأستدعي الممرضة.
الممثل١: كم الساعة الآن؟
الممثلة : اليوم السابع والأربعون... الساعة السابعة صباحاً..

(تخرج الممثلة ويدخل الممثل٢ كطبيب، ينظر إلى لوحة المريض، يجري بعض الفحوص).

الممثل : ألواني... تحترق...
الممثل٢: الحالة لا تطمئن... يجب استدعاء لجنة أطباء..
الممثل١: كم مضى من وقت؟
الممثل٢: اليوم الخامس والخمسون... الساعة الرابعة والربع..

(تظهر الممثلة بثياب الممرضة، يخرج الطبيب ليعود وهو يحمل أداة طبية، تقول الممثلة ثم تخرج)

الممثلة : اليوم الثاني والسبعون... الساعة الثامنة إلا ثلث... الحرارة مرتفعة..
الممثل١: قد أرسم الغابات يوماً
الممثل٢: اليوم السابع والثمانون... منتصف الليل... الوضع مستقر..
الممثل١: سأنهي البورتريه..

(تدخل الممثلة وهي تحمل "سيروماً" جديداً تبدله، حركة الممثلة والممثل٢ الآن محمومة ومتسارعة وهما منهمكان بأعمال طبية عادية).

الممثلة : الحالة تسوء... اليوم الواحد والتسعون... الرابعة والنصف صباحاً...

الممثل١: سأرسم... أريد ألواني..

الممثل٢: يجب وضع الأوكسجين باستمرار... اليوم المائة واثنان... الثالثة بعد الظهر..

الممثلة : الضغط ينخفض بحدة... اليوم المائة وأربعة... لا يهم التوقيت..

الممثل٢: لا يهم التوقيت... اليوم المائة وخمسة..

الممثلة : اليوم المائة وستة... الحالة حرجة للغاية.

الممثل٢: اليوم المائة وسب...

(فجأة ترتفع الإضاءة بقوة... ينهض الممثل١ وهو بملابس بيضاء هي الملاءة... يقف على السرير، يتجمد الممثل٢ والممثلة في مكانهما...)

الممثل١: (بهدوء وبقوة) ألواني تحترق... لن أنقذها... لا تبقى سوى الألوان المفترشة اللوحة... ألواني تجف... تبهت... تموت... تنقرض... لم أستخدمها... لم أداعب سطح اللوحة بها... ألواني... ألواني...

(يسود الظلام وتسدل الستارة)

اللوحة السابعة والعشرون

(الاحتمال الثاني للنهاية)*

(من الإظلام يظهر إطاران فارغان والإضاءة مسلطة عليهما، تظهر الممثلة وهي بملابس مهلهلة، إنها تحمل طستا، من الجانب الآخر يظهر الممثل٢، إنه يحمل منقلاً صغيراً يتصاعد منه الدخان وعليه عدة أكواز من الذرة، يتوجه الإثنان إلى جانب الإطارين الفارغين، يظهر الممثل١ وعلى وجهه قناع وقد استبدل ملابسه بملابس عصرية، إنه يحمل أوراقاً وصوراً، ينظر إلى الإطارين الفارغين ثم يفاجأ بالممثلة والممثل٢ اللذين وقفا إلى جانبهما).

الممثل١: ماذا تفعلان هنا؟

(تسود لحظة صمت)

الممثل١: أجيباني... من أدخلكما إلى هذا المكان؟

(*) وضع الاحتمال من منطلق إنساني وفني، ويمكن دمج الاحتماليين ضمن رؤيا إخراجية معينة.

الممثلة : آ... آ... أنا...

الممثل٢: وأنا... أتيت ليرسمني..

الممثل١: يرسمك؟ مضت سنين على وفاته..

الممثل٢: من أنت؟

الممثلة : عائشة... الغسالة...

الممثل١: غسالة؟ لم أعد أسمع بغسالة ليست أوتوماتيكية..

الممثل٢: ما زالت الذرة المشوية مطلوبة.

الممثل١: تبدوان صادقين.. هذه مواضيعه... ولكن للأسف... يجب ألا تعودا إلى هنا..

الاثنان معاً: لماذا؟

الممثل١: لأنه توقف عن الرسم..

الاثنان معاً: كيف؟

الممثل١: هكذا... احترق... ومعه احترقت ألوانه..

الممثلة : الألوان تحترق أيضاً؟

الممثل٢: في زماننا كل شيء يحترق..

الممثل١: اذهبا الآن... لا تعودا إلى هنا أبداً... لم يكن لكما مكان بين صياديه وباعته وشخوصه المتألمة..

الممثل٢: ولكننا نتألم..

الممثلة : ابنتي مصابة بفقر الدم.

الممثل٢: والروماتيزم يكاد يقعدني.

الممثلة : ما أجنيه لا يكفي لشراء الخبز.

الممثل٢: والشرطة تلاحقني... وابني رسب للسنة الثالثة في الشهادة العامة وسقف بيتي نصف مهدوم..

الممثل١: كفي... أعلم كل ما تقولان... وأعلم أكثر... ولكنني لا أستطيع مساعدتكما فأنا... لست هو... أنا لا أرسم وحتى لو رسمت لما كنتما موضوعاً للوحاتي... لا حاجة لي بكما..

الاثنان معاً: ماذا نفعل إذاً؟

الممثل١: لا أعلم... قد يأتي... بعد خمسين، بعد سبعين أو مائة سنة رسام يهتم بكما... وقد لا يأتي... أمثاله قلة نادرة..

الممثل٢: تعني أنه لا توجد ألوان لنا؟

الممثلة : احترقت؟

الممثل١: لا... لم أقصد ذلك... فحريق الألوان... غير مهم تجاه... حريق الروح...

(ينتقل الممثل٢ والممثلة إلى داخل الإطار، ويقفان هنالك كما لو أنهما من لوحات الفنان... يقترب الممثل١، يمد يده ويخلع القناع، ثم يجلس القرفصاء بين الإطارين بهدوء.. حينئذ؛ تنخفض الإضاءة تدريجياً، تثبت إضاءة خافتة على اللوحتين لحين... ثم يسود الظلام).

- انتهت المسرحية -